
هتاف المعذبين
عبد الوهاب مطاوع

رسالة من مشهور

أنا ياسيدى أحد هؤلاء الذين اصطلحتم على تسميتهم بالمشاهير ! فأنا مشهور فعلا لكنى سأستأذنك فى ألا أشير من قريب أو بعيد إلى نوع شهرتى أو إلى مجال عملى لكيلا يعرفنى أحد .. ولكيلا تعرفنى أنت أيضا لأننا التقينا عدة مرات قبل أكثر من عشر سنوات وصدقنى أننى لا أريد أن أخفى شخصيتى ترفعا أو كبرياء وإنما لكى يعطينى هذا الإختباء الحرية فى أن أحكى لك عن نفسى بكل صراحة .. وبلا خجل .. ولكى أستطيع أن أستفيد من رأيك فى مشكلتى بلا حساسية ، فشهرتى تمنعنى حتى من اللجوء إلى المتخصصين لاستشيرهم فى أمر .

ولكى تحس بعمق مشكلتى فسأبدأ لك الحديث عن نفسى من البداية البعيدة .. فأقول لك إننى شاب أو كنت شابا حتى وقت قصير ، جئت من إحدى محافظات الوجه القبلى إلى القاهرة لأتلقى تعليمى العالى .. فنزلت إليها بلا سند من أسرة ولا معين من مال .. فلقد كنت يتيم الأب ، ومات أبى وأنا فى بداية تعليمى الثانوى ، وكافحت أمى لتعليمى بجنيهات لا تتعدى الخمسة كل شهر هى إيراد قطعة أرض لا تصل إلى نصف فدان .. فقضيت سنوات التعليم الثانوى فى بلدتنا أكافح كفاح

الأبطال لنعيش معا بهذا المبلغ فكان طعامنا أيام السنة لا يتعدى الخبز والحوادق المصنوعة فى البيت .

وكانت أعيادنا تأتى كلما تمكنت أمى .. من تربية دجاجة وذبحها أو شراء نصف كيلو من اللحم .. وكانت ملابسى طوال سنوات الدراسة الثانوية بنطلونا وقميصا لم يتغيرا حتى بليا تماما أرتديهما فى الصيف وأضيف إليهما بلوفرا قديما فى الشتاء أما حذائى فكان من سوق الكانتو هل تعرفها؟ إنها سوق القرية التى تباع فيها الأحذية المستعملة وبعضها من الأحذية الميرى القديمة .. وغالبا ما كان نصيبى هو حذاء «ميرى» ثمنه عشرون قرشا ورغم ذلك فلقد كانت الحياة تمضى وكانت لنا مسراتنا ورغم ذلك كان يوم نجاحى عيدا يشرق فيه وجه أمى المكدود ، وكانت شهور الصيف أرحم من شهور الشتاء .. ففى الصيف يحتاجون إلى عمال لتنقية الدودة وكنت أعمل فى تنقية دودة القطن وفى جمع القطن طوال الصيف فأحصل على ما يعوضنا سوء التغذية طوال السنة .

وأحصل على ما أحتاجه من كتب للسنة التالية .. وأوفر رسوم المدرسة وهى بضعة جنيهات ولم يكن لى عم ولا خال لكن كان لى أقارب بعيدون يعيشون فى نفس القرية كانوا يتذكروننا أحيانا وينسوننا فى أحيان أخرى .. حتى وقعت المعجزة وحصلت على الثانوية العامة من السنة الأولى وبمجموع معقول جدا لا يحلم به أبناء القرية من الأثرياء ، وقذف بى مكتب التنسيق إلى القاهرة ، وأهلنى مجموعى وتفوقى لدخول المدينة

الجامعية فاستمتعت بالمأوى وبوجبة الطعام الساخنة التى كانت تقدم لنا أيامها بثلاثة قروش لكنى عانيت فى الحصول على الكتب الجامعية وعانيت أكثر فى الحصول على الملابس اللائقة بطالب جامعى .. خاصة إنى رفضت أن أدخل الجامعة بالحذاء الميرى القديم .. وعانيت أكثر من الغربة ومن الضياع وسط هذه المدينة الكبيرة ، ولم تعد الجنيهات الخمسة تكفى لمعيشتى فى القاهرة ومعيشة أمى فى البلدة فبدأت أمى تبيع من قطعة الأرض الصغيرة .. «فتفوتة» وراء فتفوتة لنعيش واستكمل تعليمى فبعنا أرضا أحيانا بمائتى جنيه كانت كنزا بالنسبة لنا .. وبعنا أحيانا ولن تصدقنى أرضا بثلاثين جنيها لا غير .. وعشنا بهذه المبالغ يوما بيوم إلى أن أنهيت دراستى بنجاح وبغير تخلف لأن حالى لم يكن يحتمل التخلف فى أية سنة ، ثم انتهت الدراسة وكان على أن أنهى مسألة تجنيدى لأننى وحيد أمى فتقدمت للتجنيد لأحصل على شهادة الإعفاء وأشق طريقى فى العمل وأعوض أمى عن كفاحها معى .. ولن تصدق ياسيدى ماذا حدث معى .. فلقد تقدمت للتجنيد لأحصل على شهادة الإعفاء فإذا بى أجد نفسى مجندا رغم إنى وحيد ومعفى ! لماذا ؟ لأنه لسوء حظى كان اسمى يتشابه أو يتماثل مع اسم شاب آخر يستحق التجنيد ولاتقل لماذا لم تشكُ أو لماذا لم تستخرج أوراقا تفيد إنك لست المقصود .. فلقد فعلت كل ما تقول لكنه مع انعدام الإمكانات وعجزى أحيانا عن الحصول على مبلغ جنيه واحد لأسافر إلى البلدة وأستخرج الأوراق

المطلوبة .. فلقد طالت هذه المهمة حتى إننى عندما نجحت فى الحصول على الأوراق المطلوبة كانت مدة تجنيدى الأصلية قد مضى حوالى نصفها .. وكدت أستسلم لمصيرى لولا أن ظهر الحق فى النهاية وخرجت إلى الحياة أنتظر دورى فى التعيين عن طريق القوى العاملة..

ولم أفكر فى العودة إلى بلدتى والإقامة مع أمى لأنى كنت قد اخترت دراسة ومجالا للتخصص لا يتوافر العمل فيه إلا فى القاهرة الواسعة وهكذا خرجت إلى الحياة فى هذه المدينة الظالمة .. بلا سند ولا معين .. ولا سكن .. فقررت أن أبحث عن سكن وأن أعمل أى نوع من العمل إلى أن تستقر بى الدنيا فأحضر أمى لتعيش معى ووجدت سكنا مشتركا فى بدروم إحدى العمارات القديمة عبارة عن غرفة وسط ٤ غرف فى البدروم تقيم فى كل منها أسرة مصرية مكافحة .. كان جارى القريب عاملا فى محل بقالة عنده ٣ أولاد ، وجارى الثانى نقاشا لا يعمل كثيرا ولا يربح كثيرا وعنده ٤ أولاد ، وكانت جارتى الثالثة أرملة فى الخمسين عندها ٣ أولاد، تتعيش من بيع الفول الذى توقد مواقد الغاز الكبيرة تحته فتظل توش بطريقة فظيعة طوال الليل.. ومع ذلك فلا يتضرر أحد ولا يتشاجر معها أحد ، فإذا بدرت منى إشارة إلى ضجيج الوابور سارع الجيران إلى القول .. معلهش نيجى على نفسنا شوية دى ولية وبتربى يتامى ، فما أن أسمع هذه العبارة حتى تقفز إلى مخيلتى صورة أمى بل وصورتى أيضا وأنا اليتيم يشق حياته

وحيدا .. فيتحول وش الوابور إلى موسيقى فى أذنى .

وعفوا لأنى سأقطع تسلسل الأفكار لأقول لك إننى فيما بعد قد أتاحت لى ظروفى أن أخالط أكثر الناس ثراء وأشهرهم .. بل وأكثرهم علما وثقافة وأن أتناول طعامى فى مطاعم وفنادق لو كنت سمعت باسمها وأنا فى بداية حياتى لأغمى على ، ومع ذلك فلم أعاشر أناسا متراحمين كما عاشرت هؤلاء الناس .. ولم أذق طعاما فى حلاوة فول هذه الأرملة البائسة ، لكن هذه قصة أخرى كما تقول كثيرا .

المهم لاطمت الحياة وحدى .. وتأخر تعيينى مايقرب من عامين لم يكن لى مورد خلالها سوى رزق شحيح بالقطارة يأتى على فترات متباعدة كلما نجحت فى اقتناص فرصة عمل مؤقت فى مجال تخصصى .. وكم كان ذلك صعبا ومرهقا ويتطلب من الإنسان الكثير من الجرى والسعى والشطارة .. بل والنفاق لمن فى يدهم منح العمل وقد ألزمت نفسى كلما عملت لبضعة أيام وتسلمت أجرا عنها أن يكون أول ما أفعله هو اقتطاع جزء منه وإرساله بالبريد إلى أمى ثم دفع الإيجار المتأخر .. وأحيانا كنت أدفعه مقدما لأنى لم أكن أضمن الرزق ومرت على فى هذا البدروم أيام سعيدة .. ومرت على فيه أيام صعبة .. لم يكن يخفف منها سوى المودة والتراحم بين هؤلاء الناس الطيبين الذين وحد الشقاء بين مشاعرهم. كانت ملابسى تؤخذ من غرفتى بدون أن أطلب عندما تكون إحدى الجارات عندها غسيل فتُغسل مع ملابس الأولاد وتنشر ثم تُرد إلىّ نظيفة دون انتظار

لكلمة شكر .. لأنى كما كانوا يقولون يتيم ووحدانى ولم أتوظف بعد ، وأحيانا كانت تفرج فأعود ببعض أطايب الطعام وأدعو الجيران لمشاركتى فيقبلون بتلقائية .. وأحيانا كان قرش المواصلات يعزّ على فأضطر للذهاب لمكان العمل ماشيا وذات صيف كانت الحكاية ناشفة جدا.. ومضت أسابيع بلا عمل .. وجاء العيد وكان كل أملى أن أحصل على جنيه لأركب القطار وأقضى العيد مع أمى إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .. فلم يتحقق الأمل واضطررت لقضاء العيد فى غرفتى شبه الخالية إلا من بعض الجرائد القديمة وبعض الأغطية فتجمعت هموم حياتى كلها فوق رأسى .. ورغم إنى كنت آخذ كل الأمور ببساطة .. إلا إنى ضعفت فى هذه الليلة على غير عادتى فانسابت دموعى .. ونمت باكيا بغير عشاء وفى الصباح المبكر تسللت إلى نافذتى تكبيرات العيد من راديو المكوجى الساهر حتى الصباح ثم أشرقت الدنيا بنور ربها .. وسمعت طرقات خجولة على الباب .. وقبل أن أنهض لأفتحه كان الطارق قد فتحه فإذا به أحد جيرانى عامل محل البقالة داخلا متهللا يحمل صينية الشاى وطبقا به بعض القرص المصنوعة بالعجوة وبذوق بلدى لا مثيل له يقول لى : صباح الخير ياسى فلان .. كل سنة وأنت طيب أنا جاى أشرب معاك الشاى!

صحيح ياسيدى أن الذوق شىء ليس فى الكتب .. لم يقل لى أنا جايبلك شاى تشربه لأنى حاسس أنك جائع ومفلس .. وإنما قال ما أملاه عليه حسه وأدبه الفطرى

وهكذا جلسنا على الأرض نتبادل التهانى والأحاديث الطلية .. ومرت هذه الإزمة كما مر غيرها وجاء التعيين بعد طول انتظار واحتجت إلى العمل والإدخار لأكثر من عامين حتى استطعت أن أجد سكنا لنفسى فوق سطح الأرض وفارقت الجيران الطيبين وان لم تنقطع صلتى بهم ، واستدعيت أمى من البلدة فى الوقت المناسب مع بيع آخر شريط من الأرض التى كانت تملكها .. وواجهت الحياة بصعوبتها ومشاكلها .. ولم أحقق تقدما يذكر فى مجالى خلال السنوات العشر الأولى من عملى به ولولا وظيفتى لمتّ جوعا وإملاقا .. ثم بدأت بشائر النجاح تطل على حياتى بعد طول انتظار ، وبدأت الدنيا تبتسم لى فانتقلت من الشقة ذات الغرفتين فى الدور الأرضى بالحى الشعبى الذى عشت فيه ، إلى شقة مكونة من ٣ غرف وصالة وأصبح لى أثاث مقبول يسمح لى باستضافة زملائى فى مجال العمل ، ثم تقدمت خطوة أخرى فى طريقى فاشتريت سيارة محلية الصنع قديمة كانت تطورا هاما فى حياتى فأصبحت أستطيع أن أذهب إلى الوظيفة صباحا وإلى العمل الأساسى ليلا وهكذا بدأت أنال حظى فى مجالى .. وبدأ الناس يعرفوننى .. وبدأت النقود تعرف طريقها إلى .. وبدأ دولاب غرف النوم يستقبل لأول مرة فى حياتى مبالغ كبيرة لم أر مثلها من قبل إلا فى أيدى تجار القطن فى بلدنا ، وذلك قبل أن أعرف طريق البنوك ، وأمى ترقب حالى بلا اندهاش ولا تعجب . كأن هذا أمر طبيعى ومتوقع .. وإذا سألتها مرة ألا تفرحين بكل هذه الأشياء

النقود والسيارة والشهرة والأصحاب ، تقول لي وهي متحيرة لا تعرف كيف تجيب: المهم الصحة وراحة البال! إلى أن كسرت حاجز الصوت كما يقولون في أوساطنا.. وأصبحت لا أستطيع أن أتذكر مالي من نقود بالبنك وانهال علي العمل حتى أصبحت لي قائمة انتظار ككبار المشاهير وفجأة ياسيدي سقطت مغشيا علي وأنا في قمة انهماكي في العمل .. فعزوت الأمر للارهاق لكن بعض الأصدقاء نصحوني بعدم اهمال نفسي فعرضت نفسي على طبيب فقادني إلى طبيب آخر وقادني هذا إلى ثالث ، وباختصار فإنني لن أطيل في هذه النقطة لكيلا يعرفني أحد سأقول لك الموقف الآن :

مازلت شهيرا .. لكني لا أستطيع أن أعمل إلا بربع طاقتي حرصا على صحتي التي لا تحتمل الإجهاد.. مازلت ثريا لكني محروم من كل المتع التي قد تتصورها وأبسطها الأكل .. فكل شيء في حياتي بحساب .. وإذا طاوعت نفسي مرة دفعت الثمن غاليا لمدة أسابيع وأحيانا شهور.. مازلت محبوبا في مجالي .. لكني وحيد وسأبقى وحيدا إلى نهاية العمر ولا داعي للإطالة في ذلك لنفس السبب السابق وتسألني لماذا أكتب إليك فأقول لك إنني أكتب إليك لأسألك وأنت لا تملك لي جوابا.. لماذا يا صديقي أعطتني الدنيا كل هذا ثم عادت وحرمتني من الاستمتاع به؟ ولماذا يا صديقي أعطتني الشهرة وحرمتني من الفرحة بها؟ وأعطتني النقود وحرَّمت عليَّ أن أشتري بها لذائذ الطعام والشراب التي طالما حُرمت منها..

إنني أعرف أنه ليس لديك جواب على هذه الأسئلة .. لكني رغم ذلك قد شعرت بالارتياح لمجرد أن فضفضت معك بها .. ففكر معي في جواب ولا تحاول أن تجهد ذاكرتك لكي تتعرف عليَّ فلقد أخفيت أمري عن الجميع حتى عن أمي التي لم تجد تفسيرا لعزوفي عن الحياة بمنطقها سوى أن هموم الحياة قد ركبتني منذ الصغر فأفسدت علي رغبتي في الدنيا في الكبر وسلام لك ولقرائك من المعذبين الذين أعيش مع مآسيهم كل أسبوع.. وتراودني الرغبة كثيرا في أن أطرح عليهم قصتي لعل بعضهم يجد فيها بعض العزاء .. حتى فعلت واسترحت.

□ **ولكاتب هذه الرسالة أقول : إن رسالتك هذه من نوع الرسائل التي أقف حائرا أمام تساؤلاتها .. لأن الإجابة عليها فوق طاقتي واحتمالي وقد صدقت فعلا حين قلت انك لا تنتظر مني جوابا عليها .. لأنها ليست تساؤلات وإنما «تأملات» في أحوال هذه الدنيا العجيبة التي تعطي أحيانا بلا حساب .. وتحرم أحيانا بلا مقدمات أيضا .. فلا نملك في كلا الحالين إلا أن نقول: قدَّر الله وما شاء فعل .. نعم يا صديقي قدَّر الله وما شاء فعل .. ولكل إنسان قدره .. ومن قدرك أن تشقى معظم صباك وشبابك في رحلة كفاح مجيدة ثم تحقق كل أمانيك وتصل إلى الثروة والشهرة والمجد ثم تحرمك الدنيا «الناقصة» من الاستمتاع ببعض ثمار هذا الكفاح حين يطيب الاستمتاع .. وحين تحلو الراحة بعد العناء لا جديد في ذلك ياصديقي بكل أسف فهذه هي الحياة شئنا أم**

أبينا وأنت تعرف ذلك جيدا ولك من ثقافتك ما يؤهلك لفهم حقائق الحياة مهما كانت مرارتها ولك من حكمتك أيضا ما يساعدك على أن تعرف أن من واجبنا أن نتقبل كل ما تأتينا به الحياة بواقعية ورضا وامتثال لإرادة الخالق جل شأنه ثم لاينقطع الرجاء بعد ذلك أبدا فى أرحم الراحمين - فاصبر ياصديقى واحتسب واعلم أنه لاشىء فى الدنيا من ثروة أو شهرة أوجاه أو مجد يعدل صحة الإنسان - فحافظ على صحتك ، واقنع بما أعطتك الدنيا وتلفت حولك لترى بعض جوانب حياتك الأخرى المضيئة والتى عوضك الله بها عما خسرت ولعل أهمها الشهرة وحب الآخرين وكن رسولا للخير والمحبة فى مجتمعك .. وابذر الحب تجنه قلوبا ترعاك وتحنو عليك وابحث عن أصدقاء الكفاح من البسطاء الذين غمروك بمشاعرهم الدافئة خلال رحلتك إلى المجد والشهرة وأعد صلاتك بهم .. وصلهم بما أعطتك الدنيا تُعد إلى قلبك الحزين بهجة زمان الكفاح القديم فإنى أستشعر من رسالتك أنك تعيش رغم شهرتك حالة من الوحدة الداخلية وجفاف المشاعر رغم الثروة والشهرة فأحط نفسك بمن يحبونك لشخصك وسجاياك وعطائك لهم ولسوف تحس وقتها إنك لست وحدك فى الدنيا فالوحدة باردة ودفء المشاعر يذيب برودتها .. فانهل من هذه السعادة الحقيقية .. ولا تفقد الأمل فى الله أبدا ولسوف يعوضك ربك خيرا كثيرا .. ولسوف يعطيك ربك فترضى بإذن الله.

ربة البيت !

لا أعرف من أين أبدأ قصتى .. لكنى سأقول لك أنى كنت كبرى أخَواتى البنات السبع ! نعم فلقد كنا ثمانى بنات نعيش فى شقة من حجرتين .. حجرة من داخل حجرة فى بئر السلم فى بيت بالسيدة زينب ، وكان أبى ترزى سيدات يعمل طول النهار على ماكينة الخياطة وتساعده أمى فى تشطيب الفساتين ، وكان دخله من هذا العمل المضنى يكفى بالكاد لنفقاتنا اليومية بحكمة أمى التى تدبر حياتنا بحرص شديد وتحرم على أبى أن ينفق مليما فى غير موضعه ... فحتى السيجارة كانت تحرمها عليه وإذا دخن سيجارة خلسة انتزعتها أمى من فمه بحجة ألا تحرق فساتين الناس ، لكن أمى التى كانت تدير شئون هذه الأسرة الكبيرة لم تكتف بثمانى بنات لأن نفسها كانت تنازعها إلى ولد ! فأنجبت للمرة التاسعة وجاء الولد فعلا ... ولكنها لم تفرح به لأنها توفيت بعد ٥ أيام فقط من مولده بحمى النفاس وتركت وراءها ٩ أطفال أكبرهم أنا فى الثانية عشرة من عمرى وأصغرهم شقيقى وعمره ٥ أيام .. وكنت فى آخر سنة فى المدرسة الابتدائية فتركتها وجلست فى البيت لأقوم بكل أعمال أمى رحمها الله فكنت أطبخ وأغسل وأمسح وأرعى شقيقى الرضيع وأساعد أبى فى تشطيب

الفساتين لكى يأخذ أجره ويعطينا ما نشترى به الطعام كما كنت أحمل شقيقى الرضيع على كتفى مرتين كل يوم وأذهب به إلى بيت خالتى فى حى عابدين لكى ترضعه لأنها كانت قد أنجبت حديثا ، ولم أكن أشكو من شىء إلا من أن أبى قد تغير كثيرا بعد وفاة أمى . فكان يأخذ معظم ما يكسبه بعد أن يترك القليل ويخرج فى المغرب ولا يعود إلا فى آخر الليل مخمورا ومغميا عليه ولم يتحمل المأساة طويلا فخرج ذات يوم ولم يعد وتركنا سامحه الله للأقدار نواجه الحياة وحدنا ... وشقيقى الصغير عمره ٣٥ يوما فقط ... ووجدنا أنفسنا يا سيدى ٩ أطفال بلا أب ولا أم وليس معنا مليم واحد فكان الجيران الطيبون يرسلون لنا الطعام كل يوم إلى أن يعود أبى الهارب وكنت أواصل الذهاب كل يوم مرتين إلى خالتى لترضع أخى لكن «بنى آدم »ثقيل ياسيدى كما تعرف ويبدو أننى كنت قد أثقلت على خالتى دون أن أدرى فلم أشعر يوما وأنا ذاهبة إليها حاملة أخى الذى يبكى إلا وحماتها تخرج لى من باب الشقة وتطردنى أنا وأخى وتحرّم على أن أعود به مرة أخرى فحملته وهو يبكى ونزلت السلم وأنا أبكى فركبت الترام وأنا أتهرب من الكمسارى ونزلت السيدة زينب وأخى «يفرفر» من الجوع وهدانى تفكيرى كطفلة إلى أن أدخل مسجد السيدة زينب وكلما رأيت سيدة أسألها : هل ترضعين يا ست ؟ فتقول لى واحدة : لا يا بنتى والأخرى تقول لى : يا ريت يا بنتى إلى أن رأتنى سيدة عظيمة أخذت منى أخى وجلست على

الأرض وأرضعته حتى شبع ونام ثم سألتنى عن حكايتى فقلت لها كل شىء ... فإذا بها تبكى بصوت عال ثم أخذتنى معها إلى بيتها وقدمت لى الطعام وعرضت على أن أعمل عندها ، فوافقت بدون تردد لأننا لا نستطيع أن نعيش إلى الأبد على طعام الجيران ، وهذه السيدة العظيمة التى كان لها أكبر الأثر فى حياتى وحياة إخوتى فيما بعد كانت تعمل دلالة تشترى الأقمشة والمفروشات وتبيعها بالتقسيط المريح للعائلات.. وكانت لها سمعة طيبة فى الحى كله .. وتتساهل مع «المعذورين» وتؤجل لهم الأقساط وكان صاحب البيت الذى تسكن به بارك الله فيه لا يطالبنا بالإيجار منذ اختفى أبى وظل كذلك لسنوات طويلة وبدأت العمل مع هذه السيدة العظيمة فكنت أذهب إليها كل صباح فتأخذ منى أخى بلهفة وترضعه وتهتم به وأقوم بمساعدتها فى شغل البيت وأحيانا أذهب إلى الزبائن وأحضر لها القسط الشهرى ، وكان تعطينا عشرين جنيها كل شهر ، كنت أصرفها «بالحكمة» وببركة من عند الله كانت تكفينا شر الحاجة وكنت أعود من بيتها فى المغرب مع أخى الرضيع فأرعى شئون إخوتى مع أختى التى تصغرنى بعام واحد وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى وبمساعدة أهل الخير مضت الحياة بنا فتعلمت الخياطة وجلست على الماكينة فى بئر السلم مكان أبى الغائب الذى لا نعرف هل هو على قيد الحياة أم طواه التراب سامحه الله ؟ وبفضل الله قامت هذه السيدة العظيمة التى اعتبرت نفسها مسئولة عنا بتزويج

اثنتين من شقيقاتى لاثنين من أقاربها زواجا موفقا وسعيدا ..

وقد سعت لتزويجهما لكى تخفف عنى الأعباء التى زادت على بعد أن تقدمت شقيقاتى فى مراحل التعليم فالتحقت إحداهن بكلية الطب والأخرى بكلية الآثار والثالثة بمعهد الخدمة الاجتماعية أما الباقيات ففى مراحل التعليم المختلفة وأما شقيقى الأصغر الوليد الذى حملت مسئوليته وعمره ٥ أيام فقد بلغ السنة الأولى من التعليم الثانوى أما شقيقتاى اللتان تزوجتا فهما مثلى لم تكملا التعليم الابتدائى بسبب الظروف التى واجهتنا فى البداية وقد أحسست بالفراغ الذى تركتاه بعد زواجهما لأنهما كانتا تساعدانى فى عمل البيت وفى الخياطة فأرهقتنى مسئولية البيت وتقوس ظهرى من الجلوس ساعات طويلة على ماكينة الخياطة فى بئر السلم وضعف بصرى من كثرة العمل وأرهقتنى مطالب المدارس والكليات من الملابس والكتب والأحذية وبالذات من الأحذية التى ارتفع ثمنها وقلَّت جودتها فساعدتنى ابنة الجيران التى تعمل ممرضة فى إحدى الدول العربية والتى تعرف ظروفنا جيدا على العمل فى الخارج فتركت إخوتى فى رعاية ربنا والناس الطيبين وسافرت للعمل فى مشغل كبير للتفصيل يشغل الدور الأول من المبنى ويقع سكن المغتربات فى الدور الثانى منه وكانت صاحبة المشغل كريمة معى وكنت على اتصال دائم مع إخوتى ولم أحتمل فراقهم أكثر من سنة ونصف السنة وطلبت أجازة وعدت إليهم ومعى أغلى الهدايا ومعى من

فضل الله نقود كثيرة فاشتريت لهم تليفزيونا ملونا من السوق الحرة وقمت بترميم الشقة ودهنت الجدران بالزيت وهدمت الحمام وعملته بالقيشانى ! واشتريت ثلاجة وعوضت إخوتى كل سنوات الحرمان وفرحوا بى وفرحت بهم ..

وخلال أجازتى فى القاهرة قالت لى السيدة العظيمة أنه قد آن الأوان لأن أتزوج بعد أن بلغت التاسعة والعشرين والحق أنى كنت فى التاسعة والعشرين لكنى كنت أحس أن عمرى ٩٠ سنة .. فقلت لها أنى لم أفكر فى الزواج فأصرت وأحضرت لى عريسا مناسبا يملك ورشة نجارة ويعمل فيها وصممت على أن أقابله فقابلته ورأيته إنسانا طيبا متدينا وتمت الخطبة وعقد القران وكان طلبه الوحيد منى أن أرتدى الحجاب ، وكان طلبى الوحيد منه أن يتركنى أعود للعمل فى الخارج لمدة عامين آخرين لأدخر مصاريف تعليم إخوتى لكيلا أتركهم فى منتصف الطريق بعد أن صارحته بأنى لا أستطيع المشاركة معه فى إعداد أثاث الزوجية ووافق زوجى على ذلك وارتديت الحجاب وسافرت وبدأت رسائله تصل إلى وتسعدنى حتى لاحظت زميلاتى فى المشغل أنى تغيرت وأصبحت مرحة وأحب الحياة والأمل.. لكنه يا سيدى بعد ٤ شهور فقط من سفرى كتب إلى يطلب منى العودة إلى مصر فورا للزواج قائلا أنه رجل «كسيب» ولا يوافق على أن تعمل زوجته فى الخارج ويطالبنى بأن أختار بينه وبين عملى فواجهت الحيرة ... انه ينتظر منى ردا عاجلا ... وأنا أريد منك أن

تشير على بأقصى سرعة .. ماذا أفعل هل أترك عملى وأعود إلى زوجى الذى لم يحترم عهده لى بالسماح بالعمل لمدة سنتين ويضيع مستقبل إخوتى وهم فى منتصف الطريق أم أرفض وأضحى به وأواجه المجهول فى هذه السن؟ اننى أريد ردا عاجلا قبل أن أكتب إليه .. فماذا تقول لى ؟

□ **ولكاتبة هذه « الملحمة » البطولية أقول : اننى أهدى رسالتك هذه لكل من يتملّكه العجز والإحباط إذا واجه أية عقبة فى طريق حياته فيقعد ملوما محسورا ! فها هى أسرة مصرية من ٩ أفراد عائلها «ومرشدها» طفلة فى الثانية عشرة من عمرها .. تجد نفسها فجأة فى مهب الريح بلا أب ولا أم ولا معين ولا مورد .. فتتقدم بتلقائية وبإحساس غريب بالمسئولية يفتقده أحيانا الرجال وتحمل الأمانة التى تنوء بحملها الجبال وتقود سفينة الأسرة وسط الصخور ، فلا تنهار الأسرة ولا تنحرف ولا ينفرط عقدها .. وإنما تتراحم وتترابط وتتكاتف كما تفعل أفراخ الطير حين تتداخل فى بعضها البعض التماسا للدفء فى ليالى الشتاء ! لقد ألقت علىّ رسالتك يا صديقتى درسا لن أنساه فى قيمة الكفاح وتحدى الصعاب وحمل الأمانة والتضحية من أجل الآخرين وقدمت لى رسالتك نماذج من البشر لا يملك المرء إلا أن يحترمها وأن يحبها على غير معرفة ولقد أحببت كثيرا هذه السيدة العظيمة فعلا وعملاً التى بكت بصوت عال عندما سمعت منك قصتك ثم اعتبرت**

نفسها مسئولة عنك وعن أخوتك أدبيا وما زالت تمارس مسئوليتها بنفس الأمانة إلى الآن حتى لتسعى إلى تزويج شقيقتيك من بعض أقاربها وتسعى إلى زواجك وإلى تذكيرك بنصيبك من الدنيا! ربما بأرحم مما تفعل بعض الأمهات والشقيقات...

وأحببت معك أيضا هؤلاء الجيران البسطاء الطيبين الذين كانوا يرسلون لكم الطعام عقب اختفاء أبيك الهارب لا سامحه الله ! وأحببت معك صاحب البيت النبيل الذى لم يطالبكم بإيجار بعد فرار أبيك ولمدة سنوات طويلة ولم يفكر لحظة فى انتهاز الفرصة وطردكم من الشقة .. كما قد يفعل بعض من قُدَّت قلوبهم من حجر ، وأمثاله كثيرون وأمثال هؤلاء الجيران الطيبين أكثر فى كل مكان وزمان مهما بدا لنا عكس ذلك أحيانا !

وأحببتك كثيرا واحترمتك أكثر وأنا أقرأ تفاصيل كفاحك وأحببت فيك روح التضحية التى تبدو عميقة ومتأصلة فى شخصيتك كما أحببت فيك نفسك الراضية التى لا تحمل حقدا لأحد ولا مرارة ضد الدنيا رغم «الأهوال» التى واجهتها وإنما تتذكر لكل إنسان فضله فتتحدثين عن السيدة « العظيمة » والجيران الطيبين وصاحب البيت النبيل وصاحبة المشغل الكريمة ، وهكذا كل الناس من حولك لأن من يحب الناس يحبه الناس عادة ولأن شخصيتك المضحية الأمينة تفتح لك القلوب بيسر وسهولة لذلك فإن زوجك محق بالتأكيد فى أن يتمسك بك

وفي أن يتعجل عودتك وأنصحك ياصديقتي بالاستجابة إلى طلبه .. وبعدم التفريط فيه فليس من العدل أن تطالبك الحياة بالمزيد من التضحيات بعد كل هذه الملاحم والأهوال ولا يعني ذلك أبدا أن تتخلي عن إخوتك. فمن بنى هرما كالذى بنيته يسعده أن يكمله ولابد من استكماله وسوف تستمرين في أداء واجبك في حدود قدرتك وفترة العام ونصف العام الباقية لن تغير كثيرا من واقع الحال لكن تمسكك بها قد يفقدك فرصتك في الزواج(١) والاستقرار وهو ما لا أريده لك فعودى يا صديقتي إلى زوجك ودبرى أمر مساعدة أخوتك بما تبقي معك من مدخرات وبما يستطيعون الحصول عليه من عائد العمل في شهور الصيف وعلى الماكينة في أوقات الفراغ طول العام وسوف تواصلين لهم العطاء بعد استقرار حياتك إلى أن ينتهوا من تعليمهم وثقى أن الحياة لن تتخلى عنكم كبارا .. كما لم تتخل عنكم في أقسى الظروف صغارا .. وفي هذا الصدد كدت أن ألومك أنك وافقت على اختيار شقيقتك

● زارتني كاتبة هذه الرسالة بعد شهور من نشر رسالتها وأبلغتني أن زوجها كتب إليها بعد أن قرأ الرسالة يؤكد لها تنازله عن مطالبتها بالعودة السريعة ويترك لها أن تحدد الفترة التي تراها مناسبة لتحقيق هدفها ويؤكد لها تمسكه بها في كل الأحوال وأن صاحبة المشغل الذى كانت تعمل به قد قرأت رسالتها وعرفت قصتها وطالبتها بالاستمرار معها لمدة شهرين فقط وبعد انتهائهما أعطتها مكافأة كبيرة تزيد عن مستحقاتها لديها من مكافأة نهاية الخدمة أضعافا مضاعفة . فعادت إلى مصر سعيدة وزفت إلى زوجها ثم جاءت إلى تستشيرني في أمر شاب تقدم للزواج من شقيقتها الصغرى مواصلة بذلك أداء مسئوليتها «كربة بيت» عن أمور أسرتها !

لنوع من الدراسة باهظ التكلفة وطويل الأجل كدراسة الطب مع هذه الظروف القاسية التي واجهتكم كما كدت أن ألومك على الموافقة على اختيار التعليم النظرى الطويل الذى لا يؤهل لعمل سريع بالنسبة لبعض الشقيقات الأخريات أو لاختيار التعليم الثانوى لشقيقك بدلا من تعليم متوسط يختصر الطريق ويخفف عنك الأعباء كدت أن أقول لك كل ذلك لولا أني تذكرت فجأة صورتك وأنت في الثانية عشرة من عمرك تحملين شقيقك على ذراعك وهو يبكي من الجوع وأنت تبكين من القهر ثم تذهبين به إلى مسجد السيدة زينب تسألين له الرضاع من كل من تقابلينه ووراءك في البيت ٧شقيقات صغيرات محرومات ينتظرن رعايتك فعافت نفسي أن أوجه إليك أى لوم مهما كان رقيقا فمثلك يُلتمس له العذر ولا يلام ومثلك ليس له عندى سوى الحب والاحترام !

خاطر ..

« فى النهار » !

قرأت رسالة «خاطر فى الليل» للزوج الذى تزوج من فتاة وأحبها وتبادلا الحب والاحترام والوفاء وشربا معا كؤوس السعادة والصفاء لمدة ٧ سنوات ثم شاءت الأقدار لها أن تصاب فى حادث سيارة وأن تصاب بشلل نصفى يقعدها فى البيت وكيف إنه بعد ٣ سنوات من ذلك يراوده «خاطر فى الليل» يدعوه للزواج لأنه فى عنفوان شبابه وهو يحب زوجته ولا يريد إيلامها لكن نفسه لا تهدأ .. وأفكاره تلح عليه أن يفعل .. لذلك كتب إليك يستشيرك فرددت عليه برأيك الصائب فى المشكلة.. وقد استوقفتنى فيه عبارة مؤلمة وقفت أمامها طويلا .. وفكرت فيها كثيرا ثم لم أتردد فى الكتابة إليك لأترجم هذه العبارة من مجرد افتراض تضعه أمامه إلى تجربة إنسانية يطلع عليها قارئك لعله يقتنع بأنه لا أحد يملك مصيره .. وأننا سفن صغيرة تتلاعب بها الرياح كيف تشاء .. وأننا كما قلتَ له بصدق علينا دائما أن نحتمى من غدر الدنيا بألا نظلم فيها أحدا بقدر الإمكان ولقد قلت له يا سيدى فى دعوتك له بأن يتمسك بزوجته الوفية المحبة التى ترعى بيته وشئونه رغم ظروفها الصحية وتستقبله بابتسامة وتودعه بابتسامة ، قلت له: ماذا لو كنت أنت لا قدر الله من شاءت له الأقدار أن

يتعرض لهذا الحادث وأن يضطر للبقاء فى البيت مقعدا أكان يقبل من زوجته المحبة الوفية أن تستجيب إلى نفس هذا الخاطر الذى يراوده الآن .. أم كان سيسعده بالتأكيد أن تتمسك به زوجته وأن تعيش له ولأطفاله مهما حدث وأن تتكيف مع ظروفهما الجديدة ؟

هذه هى العبارة التى توقفت عندها .. عقب قراءتى للرسالة فى هذا الصباح فقررت كخاطر ملح على «فى النهار» أن أمسك بالقلم لأكتب لك تجربتى فى الحياة لأنى أنا يا سيدى الوجه الآخر للعملة فى مثل هذه التجربة الإنسانية الأليمة .. فأنا زوج قُدِّر عليه أن يصاب بشلل نصفى بعد حادث وهو فى عنفوان شبابه.. وأنا أب منّ الله عليه بطفلين قبل ذلك الحادث مازالا فى حاجة ماسة إلى الرعاية حتى يشبا عن الطوق .. وأنا المريض الذى قرر الأطباء فى مصر وفى الخارج ألا علاج له وألا أمل له إلا فى وجه الله سبحانه وتعالى - وأخيرا فأنا المقعد الذى مازال مقعدا منذ ست سنوات أو يزيد وقد وقع لى ذلك الحادث وأنا فى عنفوان شبابى وزوجتى فى مقتبل حياتها كالوردة اليانعة التى أزهرت وأثمرت وفاح أريجها فماذا كان من أمر هذه الزوجة الشابة المفعمة بالحيوية والنشاط ؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال سأقول لك أننا تزوجنا قبل هذا الحادث بسبع سنوات وأنه كان بيننا من الحب ما يكفى ويزيد لبناء بيت صغير بدخل صغير لموظفين صغيرين فى مقتبل العمر وفى بداية حياتهما العملية والزوجية ومايكفى ويزيد من الحب والترابط والتراحم

لمواجهة مـا قد يعترض هذا البيت الصغـير من عواصف الحـياة بعناد وصـمود ودفـاع عن البقـاء وبقينا سـبع سنوات نلاطم الدنيا وتلاطمنا .. لنا أحلامـنا الصغيرة .. وإنجازاتنا الصـغيرة أيضا التى كنا نسـعد بها سـعادة طاغيـة كفـرش غرفـة كانت شـبه خاليـة من الأثاث فى الشقة أو شراء تليفزيون.. أو قـضاء أجازة سعيدة بأقل التكاليف أو شراء جهاز للمطبخ يوفر على زوجتى بعض متـاعبها وفى كل يـوم يزداد حب كل منا للآخر ويزداد ارتباطه به ويزداد احترامـه له إلى أن وجهت إلينا الدنيا ذات يوم ضـربة تحت الحزام فـكان هذا الحادث وكـان هذا الواقع الجـديد الذى فُرض علـينا .. ولم يعد أمـامنا مفر من مواجـهته .. ورويدا رويدا بدأنا نفهم حقـيقة ما حدث .. فلا علاج يجـدى ولا شفاء يُرتقب .. ولا أمل إلا فى الله رب العالمين .

فماذا فعلت زوجتى الشابة ؟

سأتسرع بالإجابة لأنى أكـاد أتخيلك وأنت تقرأ هذه الرسالة وتسـتعد لصدمة تخـيب أملك فى الوفاء والحب والإخلاص بل وفى رأيك الذى أبديته ونصحت به كاتب الرسالـة .. فأقول لك يا صـديقى الذى لا أعرفـه أنى لو كنت «جاحظ البـيان» أو «متنبى القـوافى» لما وفيت هذه الزوجة الوفية حقها من الإمتنان والعرفان والشكر ..

فماذا أقول لك يا سيدى .. هل أقول لك أنها لم تتغير عما كانت عليه قبل هذه الضربة القاضية تحت الحزام ؟

أكـون كاذبا لوقلت لك ذلك .. لأنهـا تغيـرت فعـلا .. ولكن إلى مـزيد من الحب ومـزيد من الرقة ومـزيد من

الحنان ومـزيد من الفهم الواعى لحـقائق الأمـور ومزيد من الصبر والإحتمال وتقـبل كل الأمور بواقعية وصدر رحب وأمل باسم فى الله دائما .

هل أقول لك أنها تعـتنى بى كما لو كنت شقيـقا ثالثا لطفليها ؟! أم أقول لك أنها ترعانى حتى لكأنها تفتش فى عينـى دائما عن مطالب قـد يتحـرج عن الإفصاح عـنها لسانى لتـسرع إلى إجابته بغيـر طلب منى! أم أقول لك أنها لم تشعرنى برجولتى وكرامـتى كزوج أثير محبوب قبل مرضى كـما تشعرنى بهمـا الآن وأنا ماأنا عليه من عجز وشلل !

بل أكثر من ذلك كم تحملت فى صبر وتسامح حالات نفسية مريرة لا يخـفى عليك كم يتعرض لها مريض فى مثل ظروفى ، وعملت بكل جهدها على تجنب تكرار هذه الحالات .

ايه يا سيدى .. لاشك أن أجمل ما فى الدنيا هو لحظة الوفاء فما بالك لو كان عمرا ممتدا من الوفاء والإخلاص والتفانى ؟

وها أننذا بعد كل ما جرى مـازلت أحب من الدنيا أنها أعطتنى هذا الملاك الذى يرعـانى .. بقـدر ما أعـتب على الدنيا أنها حرمتنى من صحتى وشبابى .. ولكن هل على الدنيا من عتاب ؟

□ ولكاتب هذه الرسـالة المؤثرة أقول : صـدقت يا سيدى فـلا لوم ولا عتاب على الدنيا مهـما فعلت بنا بل قبول وتآلف مع مـا قضيت به المقادير مهـما كان أليمـا ومؤلما ـ فما لا نقـدر على تغييـره لا حيـلة لنا

فيه .. ولا معنى للوقوف أمامه ، ولا لوم ولا عتاب على الدنيا يا سيدى لأننا لا نملك من أمرنا فيها الكثير ولأن أبعدنا فيها «نظرا».. لا يعرف ماذا ينتظره منها بعد حين .. ومهما تحصنا من المقدور لنا فيها بالحصون.. فأين المفر؟ لذلك فإن أقربنا إلى النجاة فيها من أسلم وجهه لخالقه وكف أذاه عن الآخرين ومن عجب ياسيدى أنى كنت قبل أن أقرأ رسالتك هذه أقرأ فى بعض أشعار أمير الشعراء أحمد شوقى هذين البيتين الفريدين اللذين كثيرا ما أتأملهما .. وأعجب من صدقهما .

فالأمر ما وسر غامض
تسعد النطفة أو يشقى الجنين
فوليد تسجد الدنيا له
ووليد فى زوايا المهملين !

ثم جاءت رسالتك لتشاركنى هذا التأمل الباطنى الذى أثاره هذان البيتان فهل يستطيع أحد أن يكتشف «القانون» الذى بمقتضاه تسعد النطفة أو يشقى الجنين؟ أو هل يستطيع أحد أن يقول أنه قد توصل إلى «السر» الذى يجعل الدنيا تسجد لهذا الوليد.. أو تنهال عليه بهراوتها الثقيلة؟ لا أحد بالطبع لأنها دنيا يا صديقى .. أو دنيا بنت دنيا كما يقولون ورغم كل ذلك فلابد أن نحياها.. ولابد أن نؤدى إليها حقوقها علينا وواجباتنا فيها والإنسان الذى لايملك من أمر نفسه الكثير هو نفسه الذى قال عنه سوفوكليس صادقا منذ عشرات القرون إنه

« أعظم أعجوبة فى العالم » لأنه يستطيع أن يحيل حياته إلى نعيم بالرضا والحب والتسامح والعطاء والترفع عن الصغائر والسمو بنفسه عن الدنايا ويستطيع فى نفس الوقت أن يحيلها إلى عذاب بأحقاده وصراعاته .. وتطلعاته .. وتكالبه وقصر نظره. وماجرى لكما بعد هذا الحادث الأليم خير دليل على صدق ذلك فلقد تفهمتما واقعكما الجديد وتآلفتما معه .. وتشاركتما فى الحب والعطاء والوفاء والإخلاص ولم يدُر برأس أيكما خاطر فى الليل ولا فى النهار واعتبرتما القضية غير مطروحة من الأصل للحوار كما ينبغى لبشر يعيشون لما هو أكثر من طعامهم وشرابهم ولأعمق وأرقى وأكثر دواما من نوازع النفس الزائلة فتحولت حياتكما إلى واحة وسط هجير الحياة وصعوباتها وكم فى الدنيا من ممتحَنين بالشدائد من أمثالك.. وكم فيها من بشر يحس الإنسان بالقرب منهم بالأمان والسمو من أمثال زوجتك. وبعض النساء تنطبق عليهن العبارة التي قالها مارك توين ذات يوم عن زوجته : « أينما نزلت كانت هناك جنة!» وبعض النساء بكل أسف ينطبق عليهن الوصف الآخر «أينما نزلت كان هناك جحيم مستعر» لكنه من حسن الطالع أن كانت زوجتك من النوع الأول الذى يجمِّل الحياة ويهون على المرء قسوتها فى بعض الأحيان.. فاشكر ربك إذا نسيت ولا تفقد الأمل أبدا فى الشفاء فماذا نعرف نحن عن أمر الغيب لكى «نجزم» بأنه لا شفاء من هذا

المرض أو ذاك.. أن كل مانستطيع أن نقوله في ذلك هو أن العقل البشرى لم يكتشف بعد علاجا ناجعاً له .. لكنه يواصل جهوده للتوصل إليه وسيتوصل إليه بكل تأكيد حين يأذن الله بالكشف عنه في يوم قريب بإذن الله فنحن نقف في أماكننا يا صديقي لكن «الفُلك المحرِّك دائر» كما يقولون ولسوف يدور دورته بإذن ربه ويحمل لك الشفاء.. ويتم الله عليك نعمته ويجزيك خير الدنيا والآخرة بإذن الله مع كامل محبتي واحترامي لك ولزوجتك العظيمة.. ومع كامل إعجابي وانبهارى بهذه المعاني السامية التى أردت برسالتك أن تنقلها لى ولغيرى من القراء فشكرا لك والسلام .

القلب المحفور

أنا يا سيدى شاب اقترب من الأربعين تخرجت فى معهد عال منذ حوالى ١٧ عاما وتخصصت فى أحد المجالات الضرورية للعمل الفنى لكن صاحبها يبقى معظم حياته فى الظل لا ينال شهرة ولا يحفظ الناس اسمه وحين كنت فى السنة الثانية بالمعهد.. ارتبطت عاطفيا بزميلة لى شدنى إليها صفاؤها.. وجمعت بيننا الظروف المتشابهة فلقد كانت مثلى مقطوعة من شجرة كما يقولون يتيمة الأب تعيش مع أمها فى إحدى المدن القريبة من القاهرة على معاش صغير بلا أخوة ولا أعمام أو خالات، وليس لها سوى أقارب بعيدين صلتها بهم شبه منقطعة.. وكنت يتيم الأبوين لى شقيقتان فرقت الدنيا بيني وبينهما فإحداهما تزوجت وعاشت فى البحر الأحمر والأخرى تزوجت واستقرت مع زوجها فى سوهاج فى بيت الأسرة.. وجئت أنا إلى القاهرة الكبيرة لألتحق بالمعهد.. معتمدا على ما تبقى من معاش أبى، أقمت فى القاهرة فى غرفة مفروشة صغيرة فى حى بين السرايات فى أحد البيوت التى تقبل سكنى الطلبة وفى هذه الظروف إلتقينا.. هى تقيم فى بيت للطالبات يلتهم معظم معاشها وأنا أقيم فى غرفة

مفروشة تلتهم معظم معاشي.. وبدافع من الوحدة والتماس الصحبة كنت أمضي معظم يومي في المعهد أدرس وأقرأ.. وأتكلم مع زملائي وزميلاتي.. وكانت هي مثلي تمضي معظم نهارها فيه واقترب كل منا من الآخر.. ووجد فيه عزاءه عن غربته ووحدته.. وذات يوم كنا نشاهد بروفة مسرحية كجزء من دراستنا في أحد المسارح وسط المدينة.. وكنت جائعا فتسللت من المسرح لأذهب إلى محل للفول مواجه له.. فوجدتها فيه تأكل الساندوتش.. فشاركتها المائدة وطلبت طعامي.. وبعد انتهائه طلبت منى أو أوصلها إلى بيت الطالبات لأن الوقت تأخر بها.. وانحشرنا في الأوتوبيس إلى الجيزة وعندما صافحتني مودعة استبقيت يدها في يدي وسألتها سؤالا واحدا هو : هل ما أحس به تجاهها هو نفس ما تحس به نحوي؟ فأومأت برأسها نعم.. ثم انفلتت جارية إلى مسكنها.. ووقفت أنا مذهولا من السعادة لحظات قبل أن أستدير عائدا إلى مسكني. كنا أيامها في السنة الثالثة بالمعهد فأصبحت أصحو مبكرا لأذهب إلى ميدان الجيزة سيرا على الأقدام وأقف على محطة الأوتوبيس القريبة من بيت الطالبات حتى تجيء ثم نركب معاً إلى المعهد.. فنمضي اليوم كله معا ثم نعود إلى ميدان الجيزة فأودعها وأسير أنا إلى غرفتي في بين السرايات وهكذا كل يوم.. نذهب معا ونجيء معا.. ونشارك في نشاط المعهد معا..ونذاكر معا في حديقة الأورمان.. أو نشاهد تجارب الفرق المسرحية والندوات

معا، وقد عرف كل الزملاء إرتباطنا واحترموا علاقتنا التي توجناها بالخطبة فسافرت إلى بلدتها في عطلة نهاية الأسبوع والتقيت بأمها وطلبت يدها منها.. وقدمت لها دبلة الخطبة وعدنا سعيدين إلى دراستنا.

وتخرجنا معا في يوم واحد.. وجاءنا تعيين القوى العاملة بعد شهور فأنقذنا من الضياع.. فعينت هي في وظيفة صغيرة بأحد قصور الثقافة.. وعينت أنا في وظيفة أصغر بأحد أجهزة الثقافة. وبدأنا نستعد لبناء عشنا.. بلا سلاح سوى مرتبينا الصغيرين..

وفي هذه الفترة مارست أعمالا كثيرة لكي أجمع بعض المال لاستئجار شقة.. فكنت أطوف على مكاتب الإعلان لأعرض عليهم كتابة الإعلانات الضخمة التي تعلق في الشوارع لأني أجيد كتابة الخط والرسم إلى حد ما.. وكنت أجد فرصة أحيانا فأحمل جردل اللون والفرشة الضخمة وأرسم وأكتب مقابل جنيهات.. وكانت هي تخرج من عملها تبحث عني في شوارع القاهرة فتجدني مرة في شارع رمسيس ومرة في الهرم واقفا أمام لوحة إعلانات.. فتأتي لي بساندوتشات الفول والطعمية.. ثم تحمل إلى الأدوات وأنا على السلم وتشاركني الكتابة والرسم إلى أن ينقضي النهار ونعود سعداء بالجنيهات التي أعطاها لنا المعلم. ثم جاءت انتخابات عامة اشتد الطلب فيها على الخطاطين لكتابة لوحات الدعاية.. فأمضينا ليالي عديدة ساهرين في ميدان الجيزة نكتب اللافتات ونسلمها لأصحابها.. وبعد

أن انتهت الانتخابات كان معنا ما يكفى لاستئجار شقة متواضعة بالدور الأرضى فى بيت شبه ريفى من بيوت الهرم فى ذلك الوقت ورغم تواضعها فلقد فرحنا بها فرحة العمر.. وأسرعنا ننقل ملابسنا إليها ونشترى «أثاثا».. وكان أثاثا عجيبا بحق.. لكننا فرحنا به ورأينا فيه رياشا فاخرا.. فبروحها الساخرة الصافية نزلنا إلى أحد محلات الكليم فى الجيزة واشترينا ٣ قطع من الكليم الملون ووسادتين وبطانية وبعض أدوات المطبخ «وسبرتاية» وعدنا للشقة.. فراحت «تفرشها».. تفرش كليما فى غرفة خالية وتقول هذه هى غرفة النوم.. وكليما فى غرفة أخرى وتقول هذه هى غرفة المعيشة.. وكليما فى الصالة وتقول هنا الأنتريه.. أما الغرفة الثالثة فتركتها خالية للمستقبل! وحددنا يوم عقد القران والزفاف واستدعينا أمها.. وأرسلت استدعى شقيقتى ثم أذعنا بين الأصدقاء وزملاء الدفعة موعد القران.. وكان بعضهم قد بدأ يعرف طريق الشهرة والمال.. فى عالم المسرح والفن، فجاءوا جميعا يحمل كل منهم شيئا للبيت أو الحفل.. بل جاء أحدهم وكان من أقرب الأصدقاء إلى قلبى يحمل معه «ترابيزة» كبيرة من بيته قال إنه لا يحتاج إليها..وآخر جاء ومعه دستة فناجين وبراد شاى وثالث معه شرائط زينة وبالونات قام بتعليقها فى الشقة ورابع جاء ومعه دستتان من المقاعد المؤجرة من محل فراشة قريب.. وهكذا وبعد انصراف المأذون..بدأ الزملاء يقيمون لى زفة وحفل زفاف استمر حتى

الصباح.. أقسم لك أنه لو أراد مليونير أن يقيمه لابنته الآن لتكلف عشرات الألوف لأن مطربيه ونجومه أصبحوا الآن من المشاهير! الذين يتقاضون الألوف!

المهم بدأنا حياتنا الزوجية سعداء. وليس فى غرفة نومنا سوى كليم ووسادة وبطانية وبدأنا نشترى قطع الأثاث قطعة قطعة.. وبدأت هى تفصل الستائر وتعيد طلاء الشقة وخلال ٣أعوام كان لدينا شقة مقبولة من كل الوجوه.

وبدأت أنا أنجح فى عملى ويزيد رزقى.. فأعطيه كله لفتاتى تتصرف فيه بحكمة.. وبعد ٥أعوام من الزواج نجحت فى استئجار شقة حديثة من ٣ غرف فى الهرم أيضا ولكن على وش الدنيا انتقلنا إليها «بزفة» أخرى من الزملاء والأصدقاء.. وأصبح لنا أثاث معقول.. وأصبحت لى غرفة مكتب ومائدة رسم أعمل عليها فى البيت.. أما هى فقد زادت جمالا وتوردا وأصبحت أكثر حبا للناس وللحياة.. وقد ألحت على أمها لتعيش معنا فأصبحت تمضى معنا بعض شهورالسنة وهى سيدة طيبة كابنتها من هذا النوع الذى لا يكره أحدا، وكلما أهديت لزوجتى فستانا أو بلوزة جميلة.. فرحت بها ثم ارتدتها مختالة لفترة.. وبعد ذلك أراها بالصدفة على بنت البواب.. أو ابنة المكوجى أو أى فتاة تتعامل معها.. فإذا سألتها قالت لى ببساطة أن الثوب «يدعو» لصاحبه وهو على جسم غيره حتى يذوب آخر خيط فيه.. وأنها توزع كل ملابسى القديمة وملابسها أيضا طلبا للدعاء..

لكي يحفظ الله لنا سعادتنا وصحتنا، وأسمع ذلك فأزداد حبا لها وأفهم ساعتها سر خلو دولابي من كل ملابسي وملابسها التي لم يمض أكثر من عام أو عامين على شرائها وأضحك حين تذكرني إذا ناقشتها في ذلك بكفاحنا أوعندما تقول لي هل تريد لغيرك أن يكون وحيد «البنطلون والبلوفر» أو وحيدة «الفستان» كما كنا في شبابنا؟!

لقد زادتها النعمة صفاء على صفاء وحبا للدنيا والناس.. وحين عرضت عليها ذات يوم أن تستقيل من عملها وتتفرغ للبيت رحبت بذلك استجابة لطلبي وقالت لي أنه ليس لها أي طموح سوى أن تسعدني وتسعد معي بقية أيام حياتنا، وفعلا إستقالت غير نادمة وزادت حياتي بهجة بتنظيم أموري وعملي الذي توسع بعد أن تعاملت مع المحلات التجارية وأصبحت مصمم ومنفذ ديكور مطلوبا في السوق..، وأصبحت هي تشاركني في عملي.. فترسم وتصمم وتشارك في التنفيذ.. وذوقها ممتاز ودائما استشيرها في أعمالي..

ثم نأتي إلى المشكلة.. وهل تخلو حياة من مشاكل يا صديقي كما تقول دائما؟

إن المشكلة التي لابد أنك فهمتها هي أننا مازلنا بعد ١٤ عاما من الزواج «عروسين» نتبادل الحب والإخلاص والاحترام ولكننا وحيدان تماما بلا أطفال وبلا أمل فيهم! فلقد شغلنا بحبنا وسعادتنا وكفاحنا خلال السنوات الخمس الأولى من الزواج فلم نلتفت إلى أننا لم

نرزق أطفالا.. ثم بعد أن استقرت أحوالنا المادية وانتقلنا إلى الشقة الجميلة بدأنا نواجه تساؤلات الأصدقاء لكني لم أكن قلقا بسبب ذلك .. حتى لاحظت أن زوجتي قد بدأت تشرد أحيانا بعيدة عني .. وحين سألتها صارحتني بأنها قد فحصت نفسها وأن الطبيب قد قال لها أنه لا أمل في الإنجاب. وصدقني أني لم أهتز لذلك .. وقد وجدت فيها الأم والزوجة والإبنة والإبن ولست أحتاج معها إلى شيء آخر .. مادامت هذه هي إرادة الله. ونسيت الأمر كله .. حتى جاء يوم وجدت بالصدفة في دولابها فستانا واسعا من الفساتين التي ترتديها الحوامل .. لم تكن قد أشارت إليه معي من قبل .. فأدركت أنها تحن إلى أن تكون ككل الزوجات حاملا وأن ترتدي هذا الفستان الواسع لكي تختال به .. وأدركت عمق المشكلة لديها وحزنت لذلك وحاولت التخفيف عنها بانتهاز الفرص لكي أقول لها في كل حين أنني سعيد بحياتي معها وأن نشأتي كطفل وحيد يتيم قد نفرتني من الأطفال .. وإنني لا أطيق «دوشتهم» ومشاكلهم .. إلخ فتسمعني باهتمام وشك كأنها لا تصدقني .. ثم تبتسم وتقبِّلني وتقول لي ساهمة : ظننت أنك تحب الأطفال وتريدهم ! فأقسم لها على عكس ذلك.. ثم ننسى الموضوع كله إلي أن تأتي مناسبة أخرى وهكذا .. ولقد جاءت المناسبة هذه المرة على غير قصد مني .. إذ كنت أستعد معها لركوب سيارتي من أمام بيتي فوجدت مجموعة من أطفال العمارة يلهون حول

السيارة وفوقها .. فداعبتهم وداعبتهم هى معى ثم دعتهم زوجتى للركوب معنا فى جولة حول العمارة فركبوا متصايحين وانحشروا فى السيارة وطلبت منى التجول بهم قليلا وهى تضحك وتلاعبهم وبعد أن أنزلناهم وواصلنا طريقنا كانت سعيدة ضاحكة .. لكنها بددت سعادتى فجأة باقتراح غريب ، فهل تدرى ماذا اقترحت على زوجتى ؟ لقد قالت لى أنها لا تريد من الدنيا سوى سعادتى .. وأنها تأكدت من حبى للأطفال من خلال ملاحظات عديدة وأنها لا تريد حرمانى من شيء أريده بسببها .. لذلك فهى تقترح على أن أتزوج زوجة أخرى لأنجب منها طفلا يحقق رغبتى .. على أن نستمر فى حياتنا الزوجية السعيدة معا! .. ظننتها تمزح.. لكنها أكدت لى أنها جادة ، وعادت إلى نفس الحديث بعد أيام بجدية تامة مؤكدة لى أنه من الأفضل لها أن يتم ذلك بموافقتها بدلا من أن يتم فى الخفاء بعيدا عنها .. وأنها لن تحس بأى غضاضة فى ذلك لأن ما يهمها هو سعادتى .. كما أن إمكانياتى الآن تسمح لى بفتح بيت آخر وحبذا لو كان قريبا من مسكننا لكيلا أتشتت بينهما .. وأن كل ما تطلبه منى هو أن أكون عادلا بين الحياتين والبيتين !

لقد رفضت هذا الاقتراح لكنه أزعجنى .. لأنه كشف لى عن عمق المشكلة .. ولم أعد إلى الحديث فيه من جديد.. حتى أثارته منذ أيام وطالبتنى بالتفكير فيه بجدية وحين رفضت شارحا أسبابى أصرت .. حتى

اقترحت عليها تخلصا من الموقف أن نحكّمك بيننا .. وهاأنذا أفعل .. وأطالبك بأن تقول رأيك بصراحة .. مع العلم بأنى لا أشعر بحاجتى إلى الأطفال وقد أعطتنى الحياة هذه الشريكة المحبة .. وهذا النجاح .. وهذه السعادة حتى لقد استعرضت معها أحوال بعض زملاء الدراسة القدامى الذين أصبحوا من المشاهير الآن ، وبعضهم أنعم الله عليه بالإنجاب لكن حياتهم ممزقة ، وبعضهم تزوج أكثر من مرة .. والبعض دفع ثمن النجاح من صحته وتعاسته الشخصية .. والبعض الآخر تهدمت حياته الزوجية وتمزق الأبناء بين الآباء والأمهات.. لكنها مازالت متشككة .. فماذا تقول لى ولها؟

□ ولكاتب هذه الرسالة أقول : ولماذا يا صديقى نفسد الأحلام الجميلة بالبحث عن العذاب ؟

إنك تعيش معها حلما جميلا من أحلام السعادة الزوجية وكلاكما محفور فى قلب صاحبه بنقوش عميقة من الذكريات وقصص الكفاح وروابط التفاهم العميق والإيثار .. فلماذا تفتحان على نفسيكما أبواب الجحيم ؟

إننى أصدقك وإن خالفنى البعض فى ذلك حين تقول لى أنك سعيد فى حياتك كما هى الآن وراض بها ولا تحس برغبة حقيقية فى هدم هذه السعادة جريا وراء الإنجاب ، مادامت هذه هى إرادة الله ولا راد لإرادته ، أصدقك يا سيدى لأن لكل حال جمالها كما لكل حال أيضا مشاكلها .. ولأن كثيرين غيرك

يستطيعون العيش بغير الإنجاب ولا يفرطون في شريكات العمر لهذا السبب وحده أبدا ولا غرابة في ذلك .. ألسنا نرى في الحياة عديدين يستطيعون الحياة بلا زواج من الأصل ؟ فما وجه الغرابة إذن في أن يكتفي مثلك بهذه الزوجة الرائعة المتفانية في إسعادك إلى حد التطوع بإكمال ماتعتقده من نقص في حياتك باقتراح زواجك من غيرها ؟

إن المشكلة ليست مشكلتك أنت يا صديقي .. لكنها في رأيي مشكلة زوجتك التي تعاني من قلق كامن على سعادتها ، ومن خوف شديد من ضياعها .. لذلك فهي «تدافع» عن سعادتها بهذا الاقتراح كأنها تتعجل مواجهة المشكلة قبل أن تفاجأ بها وهي غافلة عنها !

إنها تتصور أن هذه الرغبة كامنة داخلك أنت .. وتحاول مساعدتك على إظهارها .. وتعفيك مقدما من أي شعور بالذنب تجاهها وهي في ذلك سيدة عظيمة بكل معاني الكلمة .. لكنها تظلم نفسها كثيرا بلا داع. و«اختباراتها» المتكررة لاكتشاف مدى حبك للأطفال عذاب لا مبرر له .. لأن رضانا عن حياتنا بلا أطفال أحيانا لا يعني أبدا أن نكرههم لأن حب الأطفال شعور إنساني طبيعي سواء أكنا محرومين منهم أم غير محرومين ولا يعني حبنا للأطفال أننا نريدهم جميعا أبناء لنا .

ثم لماذا ننظر دائما إلى المستقبل هذه النظرة الحزينة الخائفة غير الآمنة على سعادتنا ؟ أليس

عجيبا أننا لا نكاد نقترب من أي إنسان تمضي حياته بلا مشاكل درامية ظاهرة حتى نكتشف داخله أعماقا حزينة خائفة من المستقبل ؟ لقد أصبحت أشك دائما في أن هذا الميل الغريزي للحزن داخلنا هو من ثمار تربية خاطئة في بيئات أسرية حزينة تستجيب لدواعي الحزن بأكثر مما تستجيب لدواعي السرور وتستغرب السعادة وتتوقع لها دائما نهايات مأساوية .. بل وتتوجس من السرور خوفا مما سوف يليه من أحزان .

ألسنا جميعا شركاء بشكل أو بآخر في هذه النظرة الخائفة الحزينة ؟ وألسنا جميعا شركاء في هذه الجريمة التي تسرق أيامنا بغير أن ندرى وتبددها في المخاوف والأحزان غير الجدية .

إن زوجتك خائفة على سعادتها معك يا صديقي وتحاول أن تدفع عن نفسها هذا الخوف وهذا القلق على مستقبلها معك بهذا الاقتراح فطمئنها على سعادتها وعلى نفسها وأكد لها أن كليكما مشدود للآخر بحبل سري لم ينقطع ولن ينقطع بإذن الله .. فإذا كانت هي تحس بالحنين إلى الأطفال فما أسهل أن ترعى طفلا يتيما محروما تفرغ فيه أمومتها المكبوتة وتخدم به الحياة وتخفف من بعض آلامها ، أما إذا كانت لا ترغب في ذلك فلتواصلا حياتكما كما هي .. ولتستمتعا بما بين أيديكما من أسباب للسعادة .. لأن «لكل شيء إذا ما تم نقصان» كما يقولون ولأن لكل إنسان حظه في الحياة ، ولأن

الحظوظ تتفاوت دائما بين البشر فتعطى الدنيا لإنسان شيئا وتسلبه شيئا .. وتعطى للآخر أشياء وتسلبه أشياء أخرى فتتساوى الأقدار دائما فى النهاية وإن بدا لنا غير ذلك .

لقد أعجبنى منطقك وأنت تذكّرها بحال بعض زملاء الدراسة من المشاهير الذين تجرعوا التعاسة رغم وجود الأبناء .. ولو شاءت هى لقصصت عليها عشرات القصص من هذا النوع ، لكنها لا تحتاج إلى ذلك لأنها تعرف تماما أن ثروتها من السعادة لاتقدر بمال .. لكنها فقط خائفة .. والخوف قد يدفع الإنسان للمبادأة بالهجوم دفاعا عن نفسه .. كما فعلت هى باقتراحها هذا .. لذلك فإنى أطمئنها نيابة عنك إلى أنه لا أساس لمخاوفها هذه ولا مبرر لها وأؤكد لها مرة أخرى أن علينا دائما أن نسلم بإرادة الله وأن نشكره على ما أعطانا وأن نصبر على ما يشقينا ، فإذا فعلنا ذلك تصبح «المخاوف كلهن أمان» كما يقول الشاعر .. وكما أتمنى لكما دائما بإذن الله .

الشريكة !

تقضى الظروف على الإنسان أحيانا أن يفعل بعض الأشياء مضطرا .. ومن هذه الأشياء بالنسبة لى كتابة الرسائل ومع ذلك فلقد وجدت نفسى أكتب إليك لأنى أعانى من مشكلة خاصة تندرج تحت نفس البند .. بند الأشياء التى يقدم عليها الإنسان مضطرا فيدفع الثمن أحيانا من نفسه وكرامته وسعادته . والقصة من البداية يا سيدى اننى محاسب عمرى ٤٠ سنة تخرجت فى كليتى منذ ١٧ سنة .. وارتبطت خلال دراستى فيها بزميلة لى قررنا منذ الأيام الأولى التى تعارفنا فيها أن يكون كل منا للآخر مهما كانت العقبات وكانت هى فتاة جميلة رقيقة من هؤلاء الفتيات اللاتى يشعن السكينة والهدوء فى نفسك حين تقترب منهن . فوجهها مريح جدا وتحس بطيبتها فى أى تعامل معها . وكانت وحيدة أبويها مع شقيق واحد وبعد الشهور الأولى من تفاهمنا اصطحبتنى معها إلى بيتها لتقدمنى لأسرتها .. وقابلت أباها فأسرنى بشخصيته من اللحظة الأولى أما أمها فلقد وجدتها الأصل الناضج لصورة حبيبتى الرائعة . أما شقيقها فلقد أحسست حين التقيت به بأنى كسبت شقيقا لى فى الحياة وأنا المحروم من الأشقاء والشقيقات . وبعد زيارتى الأولى لهم اصطحبت خالى..

لأنى يتيم الأب والأم منذ صغرى وخطبت حبيبتى من أسرتها وكنا وقتها فى السنة الثالثة بكلية التجارة وحصلنا على البكالوريوس بتفوق وعُينا فى شركتين مختلفتين من شركات القطاع العام فسعيت حتى نقلتها إلى الشركة التى أعمل بها وبواسطة الأب وجدنا عملا إضافيا فى أحد مكاتب المراجعة الكبيرة وبعد عامين فقط كنا قد بنينا عش الزوجية وانتقلنا إليه ومضت سنواتنا هادئة نخرج إلى العمل الحكومى فى الصباح ونعود إلى البيت ظهرا ثم نخرج إلى العمل الإضافى ٤ أيام كل أسبوع ونقضى أيام الأجازات مع أسرتها أو مع أسرة خالى ونخطف أياما كل صيف نقضيها على الشاطىء ونتمتع بكل لحظة فى حياتنا . وجاء ابنى الأكبر «وليد» بعد عامين من الزواج فسعدنا به ثم جاءت ابنتنا «مروة» بعد عامين آخرين فازدادت بها سعادتنا . وكنا فى هذه الأثناء قد ترقينا فى عملنا .. وأصبح ما نتقاضاه من مرتب ومكافآت وأجر عن العمل الإضافى الخاص يسمح لنا بشراء سيارة فاشترينا سيارة سيات صغيرة نركبها كلنا فى الصباح فنذهب إلى مدرسة وليد ومروة لنتركهما فيها ثم نتجه إلى عملنا ، وبعد سنوات قررنا أن نستقيل من العمل الحكومى وأن نفتح مكتبا خاصا للمحاسبة وباعت شريكتى كل ما تملك من ذهب وبعت أنا بضعة قراريط من الأرض كانت قد تبقت لى من ميراثى واستأجرنا مكتبا صغيرا وبدأنا تجربة العمل الحر معا شريكين فى العمل كما نحن شريكان فى الحياة ونظمنا العمل بحيث أقوم بمعظمه لتجد زوجتى

إلى جانب عملها فرصة للعناية بالأبناء وبيتى وزاد دخلنا واستطعنا بعد فترة قصيرة أن نشترى سيارة ١٣٢ ومضت الحياة هادئة سعيدة لا خلاف ولا مشاكل وزوجتى هى دائما الفتاة التى عرفتها فى الجامعة هادئة مريحة متفهمة للحياة .. لكنى بعد فترة بدأت ألاحظ عليها أنها مهمومة بشىء لا أعرفه وتعجبت من ذلك لأن حياتنا معا كانت كتابا مفتوحا للآخر يقرأ فيه كل سطوره .. وسألتها عما بها فتهربت من الإجابة .

وألححت عليها فطلبت أن أدعها لفترة قبل أن تقول لى ما أريد .. وتركتها مضطرا وتألمت جدا لها وتصورت أنها غضبى من أحد أفراد أسرتها ولا تريد أن تصارحنى بذلك فسكت لكنى لاحظت أن همومها استمرت وأن السكينة التى كانت تشيع فى وجهها قد اختفت إلى الأبد وحلت محلها نظرة قلقة حزينة دائما . وسألتها مرة أخرى فوعدتنى بأن تخبرنى بالأمر بعد أيام ، واستمرت ساهمة حزينة . وذات صباح نهضت من فراشى بغير أن تغمض عيناى لحظة واحدة فقررت أمرا . كنت قد لاحظت فى الفترة الماضية أنها تخرج بين حين وآخر فى الصباح وحدها وتعود قبل الظهر وتخبرنى فى كل مرة أنها أحست بالضيق وهى وحيدة والأولاد فى المدرسة وأنا فى المكتب فقررت أن تروح عن نفسها بالمشى لمدة ساعة . وكنت أصدقها بالطبع لأنى لا يمكن أن يخامرنى فيها أى شك . وعندما قررت هذا الأمر فى ذلك الصباح لم أكن أشك فيها لحظة لكنى كنت فقط أريد أن أعرف ماذا يشغلها لكى أساعدها فى

اجتيازه . وبعد توصيلي للأولاد إلى المدرسة عدت إلى شارعنا ووقفت بسيارتي في مكان بعيد وكانت قد أخبرتني بنيتها في الخروج ذلك الصباح ومضت ساعة قبل أن أراها قادمة إلى الشارع العمومي لتركب سيارة تاكسي . وركبت التاكسي فتبعتها وقلبي يخفق بالألم .. هل يمكن أن تكون حبيبتي خاطئة ؟ لا .. لا يمكن حتى لو شاهدت بعيني عكس ذلك ومضت سيارة التاكسي في زحام القاهرة وأنا خلفها بسيارتي ومضت الدقائق ثقيلة ثم وقفت سيارة التاكسي أمام مبنى لا أريد أن أحدده لكيلا أوذي مشاعر أحد آخر من المعذبين ونزلت زوجتي ثم دخلته وأسرعت لأنزل من سيارتي واتجه إلى المبنى فصدمتني اللوحة التي يحملها على واجهته .. لقد كان أحد المراكز الطبية المتخصصة في علاج مرض خطير وتعجبت أيضا لماذا تدخله ثم اقتربت من البواب وسألته عن السيدة التي دخلت منذ لحظات هل هي طبيبة .. فقال لي بفتور .. لا أنها إحدى المريضات المنتظمات في العلاج وتأتي إلى المركز مرتين كل أسبوع ! ودارت الأرض بي حتى كدت أسقط من طولي وأسرعت إلى الداخل بخطوات متعثرة فوجدتها جالسة تنتظر دورها في الممر هادئة مستسلمة كعهدها دائما وتقدمت إليها ببطء إلى أن وقفت أمامها وحزن الدنيا في قلبي .. كأني قد كبرت فجأة عشرين سنة .. وأحست بي فرفعت رأسها لترى من القادم فرأتني .. ولم تفزع .. وإنما استقرت نظرتها الحزينة على وجهي لحظات ثم بدأت الدموع تنسال من عينيها في نفس اللحظة التي كانت دموعي فيها تسيل

بغزارة أمام المرضى والمرضات .. ولم أقل شيئا ولم تقل شيئا وإنما جلست بجوارها محطما وهي تبكي وأنا أبكي .. ومريضة رقيقة المشاعر كانت تجلس بالقرب منها رأت المشهد من أوله وفهمته فراحت تبكي أيضا في صمت . وتشاركنا بدموعها هذه اللحظة . سكت طويلا وحين تكلمت كانت الكلمات الوحيدة التي خرجت من فمي لها هي «إحنا إتشاركنا في كل حاجة في الدنيا من أول يوم.. ليه ماشاركتنيش في ده كمان ؟» فلم تزد عن أن أمسكت يدي وراحت تضغط عليها وهي تجفف دموعها.. ثم جاءت المرضة تستدعيها فهممت بأن أدخل معها فرفضت ثم دخلت وحدها وعادت بعد فترة متعبة مرهقة ، وإنصرفنا.. وفي سيارتي جلسنا فرفضت أن أدير المحرك قبل أن تتكلم فتكلمت وروت لي القصة كاملة من اللحظة التي شكت فيها من بعض الأعراض فاستشارت أمها فعرضتها على طبيب متخصص إلى اللحظة التي أكدت فيها الفحوص حالتها المرضية ، وقالت لي أنها رأت أن تجنبني العذاب في وقت مبكر ، وأن تبعدني عنه أطول مدة ممكنة لكيلا تفسد حياتي إلى أن أعرف في الوقت المناسب ولن أطيل في التفاصيل.. لكني أقول لك أنني من هذه اللحظة الأليمة أعتبرت هدف حياتي الوحيد هو إنقاذها وإسعادها وتوفير كل ما أستطيع من الراحة لها .. سحبت كل مدخراتي من البنك ووضعتها تحت قدميها وقلت لها أني سأبيع بدلتي لكي تعود إليها ابتسامتها الصافية كأيام زمان ، ولست أحتاج إلى أن أقول لك أني فعلت كل ما أستطيع وكل

ما أقدر عليه فى الداخل والخارج لكننا لا نملك رد القضاء .. وانسحبت الشريكة الغالية الرقيقة من شركة عمرى وحبى وسعادتى وعملى فى هدوء وفى أسف كأنها حزينة لأنها أزعجتنى بهذه الآلام !

إننى لا أكتب إليك لأنعى لك حبى وحياتى لأنى بكيتها بدم قلبى حتى جفت دموعى وحزنت عليها كثيرا.. بل «وزعلت» منها فى بعض الأحيان لأنها إنسحبت من شركتنا السعيدة وتركتنى لأواجه الحياة وحدى .. وأواجه مصيرى مع ابنينا بعد أن أصبح وليد فى السابعة ومروة فى الخامسة وعقب الرحيل احتضنهما جدهما وجدتهما لفترة طويلة وحين بدأت الدراسة أستأذنتهما فى إسترجاعهما لأنى لا أطيق البعد عنهما خاصة مروة التى أرى فى وجهها وهدوئها صورة شريكتى الراحلة . وأصبحت حياتى موزعة بين البيت والمكتب وأمضى الساعات الطويلة معهما أحاول تعويضهما عما حرما منه وقد جربت الوحدة واجترار الذكريات واسترجاع أنفاس زوجتى فى كل موضع من الشقة .. ورضيت بمصيرى وقررت أن أكرس حياتى لرعاية إبنى وبنتى إلى أن يكبرا وبعدها فليفعل الله مايشاء ، ومضت الشهور ثقيلة بطيئة إلى أن اكتمل العام على رحيلها وذات يوم كنت فى بيت صهرى لأصحب أولادى إلى البيت فقال لى صهرى إنه يريد أن يكلمنى فى أمر هام ، ثم إنتحى بى جانبا وقال : أنت لا تحتاج لأن أقول لك أنك منذ اليوم الذى دخلت فيه بيتى وأنا اعتبرك إبنا ثالثا لى ولقد فكرت أنا وزوجتى

طويلا فى ظروفك وانتهينا إلى أنك لابد أن تتزوج فى يوم من الأيام ولو بعد عدة سنين ونحن الآن فى أخريات حياتنا ولانريد أن نترك حفيدينا تحت رحمة من لا نعرفه .. لذلك فقد قررنا إذا وافقت أن نساعدك فى اختيار زوجة نثق فى رحمتها وخلقها لتكون أما ثانية لابنيك وسكنا لك فتطمئن قلوبنا عليكم جميعا ، فما رأيك؟ كان الحديث مفاجأة شديدة لى .. فلم أستطع جوابا ، وبعد أيام عاد إلى نفس الحديث مؤكدا لى أن هذا هو نفس ما كان سيفعله لو أن ابنه الوحيد قد واجه هذه الظروف الأليمة وفوضتهما فى أمرى بعد الحاح شديد ممزوج بدموعهما وبعد أسابيع عرضا علىّ إحدى قريباتهما من ناحية الأم وهى مدرسة قاربت الثلاثين متوسطة الجمال ولن أقول لك كم عانيت لكى أقبل فكرة أن تحل أخرى محل شريكتى الراحلة .. ولا كم عانيت كلما تصورت أن أبنى وابنتى سوف تضطرهما الظروف لأن يعيشا تحت رعاية من لا تحمل لهما مشاعر الأمومة الطبيعية .. لكنى استسلمت للأمر الواقع وقلت لنفسى هاهى فتاة تقبلنى «بعيبى» فلم لا أقبلها أنا أيضا ؟ وعند هذه النقطة تبدأ مشكلتى الحالية ياسيدى .. فلقد قرأت فى بريدك ذات مرة رسالة لطبيب شاب مطلق يشكو إليك من نظرة الفتيات إليه وخوفهن منه مما دفع أكثر من واحدة تقدم إليها وارتبط بها إلى رفض الزواج منه لأنه مطلق .. أى صاحب سوابق فى الزواج مما يعيبه فى نظرهن لذلك أردت أن أضيف إلى خبرتك بالحياة شيئا جديدا لم تتناوله رسائل قرائك المعذبين من قبل ، فأقول

لك إن متاعب المطلق تهون إلى جوار متاعب الأرمل ذى الأطفال الصغار !

فالأرملة ذات الأطفال قد تجد رجلا متوسط العمر يقبلها لأنها هى التى سترعى أبناءها وتتحمل مسئوليتهم أما الأرمل وله أطفال فهو مأساة حقيقية لأن الزوجة ترفض غالبا مسئولية رعاية أبناء غيرها خاصة الصغار منهم ممن يحتاجون إلى صبر واحتمال ولقد علمت بعد فوات الأوان أن صهرى الطيب قد عرضنى على جميع فتيات الأسرة ممن لم يتزوجن وبعضهن مطلقات فرفضننى جميعا لأن عندى أولادا صغارا كما أن الفتاة التى قبلتنى «بعيبى» لم تستطع لحظة أن تنسى هذا «العيب» فى كل تعاملها معى ففى الخطوات الأولية من الزواج كانت مطالبها مضاعفة ومغالى فيها بطريقة غير معقولة حتى بالنسبة لفتاة صغيرة .. فإذا استفسرت أو ناقشت قيل لى : معلهش ماتنساش ظروفك. وهكذا جهزتها بأضعاف أضعاف ما تجهزت به حبيبتى الراحلة .. ودفعت لها هدايا ومهرا لو عرضتها على شريكتى الأولى لاتهمتنى بالجنون والسفه ورفضتها .. واكتشفت أن على دائما أن أقبل كل ما تريد وألا أرفض لها طلبا «لأنى معيب» وعند أول بادرة خلاف لادخل لى فيه تغضب وتذهب إلى بيت أسرتها «لترتاح من هم الأولاد» ويقال لى اذهب صالحها لأنها متحملة أولادك ! وهى فى واقع الأمر تضيق بأى لمسة شقاوة منهما وكأن المفروض عليهما أن يتعاملا معها بحكمة الشيوخ لمجرد أن الحياة قد حرمتهما من أمهما..

وكلما ضاق صدرى تذكرت شريكتى الراحلة التى عاشت معى ١٢ عاما كالنسمة الرقيقة ، إنى أكتب إليك الآن وزوجتى الجديدة «غضبى» للمرة الثالثة خلال فترة زواج لم تزد على عام .. وقد رفضت هذه المرة أن أذهب إليها لأنه لا ذنب لى فى أن ابنتى التى لم تكمل السابعة من عمرها قد قالت لها خلال غيابى أنها لا تحبها وإنما تحب ماما .. أى أمها الحقيقية وأسأل نفسى هل أخطأت حين قبلت اقتراح صهرى وجد أولادى بالزواج .. أم أخطأ هو حين تصور أن هناك من سيرحم أحفاده بعد ابنته .

□ ولكاتب هذه الرسالة الحزينة أقول : لا ياصديقى لم تخطىء .. ولم يخطىء صهرك العظيم الذى يفيض قلبه حبا لك وللبشر كلهم رغم فجيعته فى ابنته الوحيدة ، وإنما أخطأت الظروف الأليمة التى إمتحنتك بهذه المحنة ، والمرء لا يملك من أمر نفسه الكثير ولا هو بقادر على أن يختار لنفسه الحياة التى يتمناها فى كل وقت لأن هناك دائماً ظروفاً أقوى منه كهذه الظروف الحزينة التى فضّت شركة العمر الجميلة بينك وبين زوجتك الراحلة.. فاعف نفسك يا صديقى من أى لوم .. واعف صهرك النبيل الذى أعجبت كثيرا بشخصيته وواقعيته وتجرده من الأنانية أيضا وتعامل مع الأمر فى حدوده الحالية .. وهى مشكلة الزوجة الجديدة التى لم تتكيف بعد مع ظروف حياتك واسمح لى بأن أخاطبها مباشرة فأقول لها : ياسيدتى ليس من

الرحمة أن يحاسب الإنسان غيره على ما لا حيلة له فيه ، وأنت بهجرك لبيتك تحاسبين زوجك على أقدار لم يختـرها لنفسـه ، وتنسـين أنه في النهـاية أب لطفلين لا يستطيع أن يتحكم في مشاعرهما الطفولية السـاذجـة ، ولقـد قـبلت من البـداية أن تكوني الأم الثانية لطفليه وفرضت شروطك المتشددة عليه وقبل بهـا ومن واجبك أن تؤدي الأمانة التـي رضيت بهـا وتضمدي جراحه لتساعديه على أن يسعدك ويحقق لك كل مـا تتـمنينه . إنه شـاب أمين ، ينبـغي أن تحرصي عليـه ، إذ ما كـان أسهل عليـه من أن يترك طفليـه في رعاية جـدتهمـا ثم ينطلق هو في الحـياة على هواه يفـعل مـا يريد لكنه شـاب جاد لم يعـرف العـبث وتاريخـه مع زوجتـه الراحلة وكـفاحـه في الحياة يؤكدان ذلك ومثل زوجك هذا يا سيدتي يكون أحرص عليك من غـيره لأنه يحتاج إليك مـرتين مرة لابنيه ومـرة لنفسـه .. فلا تجـعلي من حاجـته إليك فرصة لابتـزازه نفسيا وعـاطفيا كمـا تفعلين الآن .. وتذكـري دائمـا أن خيـر الناس أعـذرهم للناس وأن الحـيـاة ديون يا عزيـزتي فإذا أسـأنا لغـيـرنا الآن واحـتملونا لأسـباب لا نقدرها فـلربما اقتصت منا الحياة من حيث لا ندري ولا نحتسب والحياة كفيلة بأن تعلم الإنسان ألا يغـتر بصحة أو مـال أو شباب أو جـمال فـلا شيء يخـفف من وحشة الإنسـان في النهاية يا سيدتي سوى الروابط الإنسانية العميقة .

والإنسـان قادر دائمـا على التكيف مع ظروفـه ..

وقادر دائما على أن يستشعر السعادة في أية ظروف يوطن نفسه على الرضا بها .. والعقلاء يقولون دائما إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يـكون .. تكتشف جماله . وإنني لاأريد أن أجـرح شـعـورك فـأذكـرك ببـعض ظروفك التي حذفـتها من هذه الرسـالة والتي تجعل من زواجك بهذا الزوج الممتاز أملا لم تكوني لتطمحي إليه .. لولا أن شـاء الله . فتذكـري ذلك .. وتذكري أن الحـيـاة شـلال يصب الميـاه بلا انقـطاع وأنك إذا استـمرأت هذه الحـال فلن تكون نهاية الدنـيا وربما كنت الخـاسـرة في النهـاية . فلم لاتضـيـقين إلى رصيدك عنده الكثير بعـودتك إليه مختارة هذه المرة وبلا انتظار لأن يسعى إليك ؟

ألا تعـرفين يا سيـدتي أنك تكسـبين خـير الدنيـا والآخرة بحسن رعايتك لهذين الطفلين المحرومين من حنان الأم؟

كما أنك المدرسـة التي تعرف الكثيـر عن شقاوات الأطفـال البريئـة .. وعن مـشاعـرهم أيضـا .. فلم لا تستخدمين خبرتك معهما فتكسبي قلبيهما الصغيرين وتكسبي قلب أبيهما ؟ إنها مـهمة ليست صعبة .. لو اعتـبرتهـا إمتحـانا لإرادتك وكـفاءتك وشـخصـيتك كـزوجـة وأم لـهـذين الطفلين.. وأنت لـم تخـوضي التجربة جديا حـتى الآن لأنك أسرعت بالفرار مع كل لمحـة خـلاف في الأفق .. ولو عـدت وصـمـدت قليلا فـسـوف تنجـحين في الفـوز بقلوب زوجك وطفليـه وبقلوب كل من حـولك واحـتـرامـهم أيضا .. فـمـاذا تنتظرين ؟

أقـــوى ..
من الكلام !

أنا سيدة فى التاسعة والعـشرين من عمرى .. عندما كنت طالبة فى المرحلة الثانوية اتجهت مشاعرى إلى ابن عمى الذى كان يكبرنى بخمس سنوات .. وكانت مشاعر صامتـة لا تعبر عن نفسهـا إلا فى الاهتمام به .. والقلق عليه وبـالرغم من أنى لم أفاتحـه أبدا فلقد كان مـا بيننا أقوى من أى كلام وقـد بادلنى هذه المشاعر الصـامتة .. وتوثقت الروابط بيننـا بغيـر مـصارحـة، وتقـدمت فى دراسـتى والتحـقت بالجامـعة .. و الشىء الذى أحـمله بداخلى تجاهه ينمو ويتضخم .. حتى وصلت إلى السنة النهائية .. ووجد ابن عمى أنه قد أصبح من المناسب الآن أن يتقـدم لخطبتى .. فـقرر أن يفـاتـح أبى ، فـإذا بأبى يقع فى حـــرج شـديد .. لأنه كـان يحب عـــمى الراحل ويحب ابنه هذا ويعجب بأخـلاقه .. لكنه يحلم لى بزوج له مركز مرموق يباهى به الناس ويستطيع أن يفتح بيتا لائقا .. وابن عـمى هذا لم يستطـع أن يكمل تعليمـه بعد وفـاة أبيه واكـتفى بشـهادة مـتوسطة لكى يعمل بهـا ويساعد أسرته ، وبعد تردد رفض أبى طلبه وصدم ابن عمى صدمة كبيرة .. لكنـه لم يفقد احترامه لأبى .. وقال له أنه يقدر مشاعـره كأب .. ويرى أن من حقه أن يطلب لابنتـه زوجـا أفضل منـه .. لكنه يحـبنى منذ ٦ سنوات

وأنا أحبه .. وهو يضع مصيرنا بين يديه .

وتأثر أبى لكنه لم يتزحـزح عن موقفه .. أمـا أنا فقد أظلمت الدنيا فى وجـهى .. وفقدت إقبالـى على الحياة ، خـاصة أن ابن عـمى قد وفى بوعـده لأبى بألا يرانى .. وألا يزورنا لكيلا تتضاعف آلامـنا بلا فائدة . وابتعد عن أسـرتنا فعـلا لمدة سنة .. واسـتراح أبى مـتصـورا أنى نسـيتـه .. لكنى لم أنسـه .. إذ كيف يتـلاشى حب ست سنوات طويلة هى زهرة الشباب فى سنة واحدة .

ثم مضت الـشهور وتقـدم لى شاب تتـوافر فـيه كل المواصفات المطلوبة .. فهو مهندس ناجح له عمل خاص.. وشقـة جمـيلة وسيارة .. ومـقبـول شكلا .. ومن أسرة طيـبة فـرفضـته بالطبع .. لأن مـشاعـرى مع غيـره .. وغضب أبى وغضـبت أمى .. وحدَّثانى طويلا ، لكنى لم أغير موقفى ، ثم فـجأة تلقيت من ابن عمى خطابا يطلب منى فيه قـبول هذا الخطيب لكيلا أضيع شـبابى انتظارا لحلم مستحيل .. ولا أعرف هل كتب إلى هذا الخطاب من نفسـه أم أن أمى طلبت منه ذلك .. وعمـوما فقـد حزنت كثيرا بعـد قراءتى لهذه الرسالة .. وعشت أيامـا تعيسة وحين فـاتحنى أبى مـرة ثانيـة فـى الموضـوع لم أتكلم فاعـتبر صمـتى موافقة وارتبط مع الخطيب على مـوعد لعـقـد القران وتم الـقران .. وسـعـد أبى بهـذا الخطيب المشرِّف .. وبمركـزه وعائلته وخلال شـهور تم الزفاف وانتقلت إلى شقـة الزوجية ، وكانت شقة أنيـقة واسـعة فى عمارة يجاورنا فيها بعض المشاهير!

وأقـبلت على حـياتى الجـديدة برغـبـة خالصـة فى

نجاحها .. ولأنى أعرف ربى ومتدينة فلقد اعتبرت أن مجرد مرور طيف ابن عمى بخاطرى وأنا على ذمة رجل آخر «خيانة» لا أرضاها لنفسى ..

وقلت لنفسى أن كثيرات هن من تزوجن بغير حب ثم نجح زواجهن وأحببن أزواجهن وأنجبن البنين والبنات ثم سخرن فيما بعد من حديث بناتهن عن الحب .. والحب الأول .. وحب العمر .. الخ ..

وقلت لنفسى .. ماذنب زوجى فى أن أبى قد حال بينى وبين شريك طفولتى وصباى وشبابى بسبب اعتبارات اجتماعية رآها مهمة من وجهة نظره .. وهكذا أقبلت على حياتى معه بإخلاص .. وساعدنى على ذلك أنه شاب على خلق وطيب .

لكن .. وآه من لكن التى لا تخلو منها حياة كما قرأت لك أكثر من مرة .. فلقد وجدت نفسى بعد أسابيع فقط.. مصابة بحالة اكتئاب لا أطيق أى شىء حتى تنظيف الشقة أو طهى الطعام ، ورغم محاولاتى لإمساك أعصابى فقد أصبحت أثور لأتفه الأسباب وبدأت المشاكل والشجار .. وبدأت أتحيَّن أى فرصة لأغضب وأذهب إلى بيت أبى بعيدا عن البيت والزوج ، ثم يأتى زوجى بعد أيام ويصالحنى وتحت ضغط الأسرة أعود معه محاولةً أن أبدأ من جديد ، ثم تفاقمت بيننا المشاكل فطلقنى بعد خمسة شهور فقط من زواجنا وعدت إلى بيت أبى سعيدة بحريتى ، لكن بعد أيام شعرت بتعب مفاجىء واكتشفت أنى حامل .. وعندما علم زوجى بذلك جاء إلى وردَّنى لكى ينشأ الطفل القادم بين أبويه ،

ومرت بيننا فترة هادئة وأنا أحاول بكل طاقتى أن أتحمله وهو يحاول أن يتفاهم معى معتقدا أن قصر فترة الخطوبة هى السبب فى عدم تفاهمنا بالقدر الكافى .. إلى أن جاء يوم عرف فيه زوجى بقصة ابن عمى.. ولا أعرف حتى الآن كيف عرف بها .. لكن حياتى بعدها تحولت إلى جحيم .. فمنعنى من الخروج ومن زيارة بيت أبى إلا فى صحبته .. ومن زيارة أسرة عمى لأى سبب من الأسباب ، مع أنى لم أكن أزورها تجنبا لرؤيته ولكيلا أحس بالذنب حتى لوبادلته نظرة واحدة ، لكن زوجى لم يقتنع .. وهو معذور فى ذلك فالشك جحيم .. وقد دفعت أنا ثمنه .. وساءت صحتى وساءت حالتى النفسية .. وأصبحت أصاب بإغماءات متكررة كل عدة أيام وفى إحدى الإغماءات نقلونى إلى المستشفى .. وأفقت بعد فترة فإذا بى قد فقدت جنينى .. ومرت أيام وصحتى تتدهور وفترات الإغماء تتوالى ثم فتحت عينى ذات مرة فوجدت أمامى ابن عمى يقف بالقرب منى والدموع تنساب من عينيه .. فلم أكلمه .. وإنما أطلقت لدموعى العنان .. ومضت لحظات وهو صامت يبكى .. وأنا صامتة أبكى ولم يستطع أن يلمس يدى لأنى زوجة رجل آخر ، وفجأة دخل زوجى ورأى هذا المشهد الصامت .. فنظر إلىَّ بدهشة وألم .. وتوقعت صاعقة تنهى ما بقى لى من حياة .. لكنى فوجئت به هادئا هدوءا غريبا وبعد لحظات نظر إلى ابن عمى وقال له : إذن فأنت غريمى .. ثم استدار إلىَّ وقال لقد أردت أن أسعدك .. لكن سعادتك ليست معى كما عرفت الآن ..

يا فلانة إنى أعطيك حريتك .. أنت طالق بالثلاثة لكيلا تكون لنا رجعة أخرى .. وأتمنى لك حياة سعيدة .. ثم خرج من الحجرة بخطوات ثقيلة حزينة .

ومرت أسابيع بعد هذا اليوم الرهيب استعدت خلالها صحتى بسرعة .. وخرجت من المستشفى إلى بيت أبى.. وتقدم ابن عمى إلى أبى يطلب يدى مرة أخرى ولم يستطع أبى الرفض هذه المرة بعد أن عرف أن النقود أو المركز لا يصنعان السعادة .

وانتقلت إلى بيت فتى أحلامى بعد احتفال بسيط .. وبدأت أيامى الحقيقية .. لقد كنت أعيش فى شقة من ٤غرف فى عمارة راقية .. فأصبحت أعيش فى شقة من غرفتين فى حى شعبى وبيت قديم سلالمه متسخة باستمرار .. لكننى سعيدة وأشعر أن هذه الشقة الصغيرة هى قصر فاخر !

كنت أشعر بتعب الدنيا ينزل على جسمى إذا أردت تنفيض الشقة وأستعين بالبواب وأختنق وأنا أشاركه فى تنفيضها ، فأصبحت أكنس شقتى الصغيرة وأمسح بلاطها كل يوم بنشاط عجيب .. وأصبحت الشقة تلمع كالمراية ولا تستطيع أن تجد فيها ذرة تراب !

كنت أكره الطهى .. فأصبحت أتفنن وأصنع أكلات لذيذة نلتهمها بشراهة وتلذذ حتى زاد وزنى ٨ كيلوجرامات خلال سنة واحدة وحذرنى حبيبى من السمنة لكيلا تضر بصحتى !

وأنعم الله علينا بطفل وطفلة فى عامين متتالين .. فأصبحت مسئولة عن أسرة صغيرة أرعاها وأغسل

ملابس الأولاد وأحضر طعامهم .. وأمسح أحذيتهم ومعها حذاء زوجى كل يوم .. ولا أشعر بالتعب ولا بالملل ، بل ووفرت نقود المكوى .. فأصبحت أكوى ملابس زوجى وملابس الأولاد حتى بدلة زوجى أكويها مكوة لا يستطيع المكوجى أن يصنع مثلها ..

وكأى أسرة صغيرة تواجهنا مشاكل .. لكن مشاكلنا مع الدنيا .. وليست مع بعضنا البعض نشكو من الغلاء.. ومن قلة الدخل .. ومن ارتفاع أسعار ملابس الأطفال .. ولانخرج إلا إلى بيت أسرتى أو أسرته ، لأن ميزانيتنا لا تسمح لنا بالفسحة .. لكننا سعداء .. نتغاضب أحيانا كما يفعل كل الأزواج .. لكن غضبنا أقرب إلي المداعبة والإغاظة منه إلى الزعل .. ولا يتجاوز لحظته .. ثم لابد أن يصالح أحدنا الآخر ولا نبيت إلا أحباء متراضين.

«نتبحبح» أول الشهر في المصاريف .. ونقتر على أنفسنا آخر الشهر لكى نصل إلى بداية الشهر التالى بأمان .. لكننا سعداء ..

وزوجى يكافح لإسعادى .. ويحاول أن يوفر لى كل شيء لكيلا أشعر أنى نقصت شيئا عن حياتى السابقة فأضحك منه .. لأن مثل هذا الكلام يمكن أن يقال لغيرى وليس لى أنا التى عرفت أن السعادة ليست بالنقود .. فإن كانت حياتى قد نقصت شيئا .. فلقد نقصت الاكتئاب والمشاحنات والآلام .. والغربة .. والجفاف ، كما أن ما حذرنى منه أهلى لم يحدث لأنى لم أشعر لحظة واحدة ولن أشعر أبدا أن زوجى أقل منى لأن مؤهلى جامعى .. ومؤهله متوسط ، فلقد منح الحب

زوجي شهادة الدكتوراة .. وأصبحت أشعر أنه أعلى مني علما وثقافة.

لقد احتفلنا في الأسبوع الماضي بمرور خمس سنوات على زواجنا السعيد الذي أدعو الله أن يدوم حتى آخر العمر وفكرت أن أكتب إليك فهل تعرف ماذا أريد منك ؟؟

إنني لا أريد منك عملا .. ولا واسطة.. ولا جهاز تليفزيون ولا أي شيء من ذلك .. إنني أريد منك أن تكتب للآباء بألا يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه أبي حين حرمني من زوجي لأن شهادته متوسطة.. أو لأنه لم يكن جاهزا.. قل لهم يا سيدي أن أبي نفسه قد ندم على أنه ضيع من عمري عامين تقريبا في تجربة الزواج الفاشل معتقدا أنه يحقق لي السعادة ، ولا أريد لأي فتاة أخرى أن تتعرض لنفس التجربة فالحب الصادق يستطيع أن يذيب الكثير من الفوارق ويستطيع أن يصمد للعواصف والصدمات .. فانصحهم يا سيدي قبل أن تتكرر قصتي مع فتاة أخرى ولك الشكر من زوجين سعيدين ..

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : نعم يا سيدتي .. سأكتب مطالبا الآباء بألا يقفوا في طريق سعادة أبنائهم .. لكني سأطالب الأبناء أيضا بأن يستعينوا بحكمة الآباء في اختيار طريق السعادة بلا عناد من جانب الطرفين .. لأن هدف كل منهما واحد وهو سعادة الأبناء كما يتصورها الآباء لهم .. أو كما يتصورها الأبناء لأنفسهم..

وفي مثل حالتك هذه فلقد كانت هناك اعتبارات

كثيرة كان على أبيك أن يراعيها في قراره برفض ابن عمك ، منها عمق ارتباطكما العاطفي وصعوبة تجاهل هذه العلاقة التي نمت بينكما على مر سنوات طويلة، وصلة الرحم بينه وبين ابن أخيه الذي لا جريرة له في رحيل أبيه عنه واضطراره لقطع تعليمه فضلا عن ميزاته الأخلاقية الأخرى ، ففي مثل هذه الظروف ، كان من الحكمة فعلا التساهل قليلا في اعتبارات الشهادة الجامعية .. والإمكانيات المادية ، إذ متى كانت الشهادة والإمكانيات وحدهما طريقا للسعادة أو للزواج السعيد؟ لكننا للأسف لا نتعلم الحكمة أحيانا إلا بعد أن نؤدي للحياة ضريبة الألم ، وقد جنيتم خلال ذلك على إنسان بريء سعى إلى سعادته بالطريقة المألوفة .. فتجرع تعاسة أن يعاشر من لا تحبه .. ودفع ثمن تجاهل أبيك لارتباطك العاطفي المتين بفتى أحلامك .. إنها محنة قاسية .. ومن نكد الدنيا أن البعض قد يطأون أحيانا بعض الضحايا في سبيل الوصول إلى حقهم المشروع في السعادة .. لكني لا ألومك في ذلك بل ولا ألوم أباك وحده.. وإنما ألوم أوضاعا كثيرة متشابكة في حياتنا تجعل مقاييس الزواج في كثير من الأحيان ظالمة لأحلام الشباب ومثيرة لإحباطهم .

ولقد ذكرتني رسالتك هذه برسالة مريرة كتبها إلى شاب تعليقا على مشكلة العريس الجاهز الذي يسطو غالبا على فتاة أحلام شاب مازال يمشي على الطريق الطويل لكي يبني عش أحلامه مع فتاته .

فقال لى فى رسالته .. إننا جيل محكوم عليه بالحرمان ممن يحب .. لأنه عاجز غالبا عن توفير إمكانيات الزواج وخاصة الشقة قبل عشر أو خمس عشرة سنة من تخرجه ، لذلك يسطو الجيل السابق له على فتيات أحلامه .. أما نحن فليس أمامنا سوى أن نسير فى الطريق الطويل حتى نصبح قادرين على الزواج .. ثم نسطو نحن بدورنا على فتيات أحلام الجيل الذى يلينا !!

وهكذا تدور عجلة التعاسة .. لتطحن آخرين وآخرين، ولأن القضية كبيرة فلن أطيل فيها لكنى سأقول لك فقط أن السعادة هدف يستحق المعاناة من أجل الوصول إليه وأن الإمكانيات المادية ليست وحدها فعلا طريق السعادة وإنه رغم أن التكافؤ العلمى مطلوب للنجاح فى الزواج ، فإن مقاييسه لايمكن تطبيقها بحدة فى كل الحالات .. لأن هناك اعتبارات أخرى لابد من مراعاتها منها أن الفروق ضيقة جدا بين الشهادة الجامعية والشهادة المتوسطة.. وأن الفكرة القديمة عن زواج الجامعية من غير الجامعى ليست صحيحة .. لأن الكل غالبا فى الضحالة سواء ، لذلك فإن عامل الارتباط العاطفى هنا أكثر أهمية .. وكلماتك الفريدة خير دليل على ذلك ..

فالشقة الضيقة فى الحى الشعبى .. قد أصبحت قصرا فاخرا .. لأنها مفروشة بالحب !!

وأعمال البيت التى كانت مرهقة .. قد أصبحت

أنغاما موسيقية تعزفينها على وتر السعادة ..

ومشاكل الحياة وارتفاع الأسعار قد أصبحت موضوعات مسلية للدردشة والفضفضة وليست سببا للنكد والشجار ..

والطهى الذى كنت تكرهينه أصبح هواية جميلة تخشين من نتائجها على وزنك !!

ولا غرابة فى ذلك يا سيدتى .. لأن رائحة الحب فواحة .. لاتحجبها أبدا مصاعب الحياة .. وقد فاحت عبيرا أخاذا من سطور رسالتك ..

تماما كما أن رائحة التعاسة ثقيلة ولاتحجبها معطرات الجو مهما حاولت إخفاءها !!

فهنيئا لكما سعادتكما .. ولتعوض الحياة زوجك الأول عن تجربته المريرة بمن تحمل له كل أو بعض هذا الحب الآسر !!

.. الفصل الأخير

أنا ياسيدى أحد الأشخاص الذين يجدون صعوبة شديدة فى بث شكواهم للآخرين .. لكننى فى حاجة شديدة لمن يسمع لى الآن .. فأنا مهندس تفتحت عيناى على الحياة فوجدت نفسى ولا أحد لى فى الحياة سوى أخت وحيدة مثلى .. وقد رحل والدنا عن الحياة وأنا فى العاشرة وأختى فى الثامنة وتولت أمنا تربيتنا ورعايتنا بمعاش أبى وبإيراد بيت قديم نقيم فى إحدى شققه .. ولم يكن لنا أعمام ولا أخوال .. ولا أقارب سوى أقارب بعيدين فى أقصى الجنوب تقطعت صلتنا بهم منذ زمن بعيد .. ولم يعد لنا من يعرفنا أو نعرفه .. وكانت أمى تميل إلى العزلة بطبعها ، وقد كرست حياتها لنا .. وحددت هدفها فى أن نتعلم تعليما جامعيا يهيىء لنا فرصة الحياة الكريمة ، ولم نخيب أملها فكنت وشقيقتى دائما من المتفوقين ، ودخلنا كلية الهندسة فى عامين متتاليين وكأن أمى قد اطمأنت بذلك إلى أنها قد وضعتنا على بداية الطريق فانسحبت من الحياة بهدوء كما عاشت دائما بهدوء ، ووجدت نفسى أنا وشقيقتى وحدنا تماما ، لا أقارب .. ولا أصدقاء .. نذهب إلى الكلية معا ـ ونعود إلى البيت الخالى معا ، وقد ربطت بيننا الوحدة برباط متين ..

وفى العام الثانى لى فى الجامعة تعلق قلبى لأول مرة فى حياتى بزميلة لى فى الكلية اقتربت منى ومن شقيقتى ثم نشأت بينى وبينها قصة حب عميق نمت داخلى حتى تملكتنى تماما .. وتم التفاهم بيننا على الارتباط الأبدى ، وأسعدنى فى هذه الفترة أن تقدم جار لنا يطلب منى يد شقيقتى واستشعرت لديها الميل إليه وقبوله فتمت الخطبة بعد أدائى لإمتحان البكالوريوس ونجاحى فى الإمتحان .. وبدأت أفكر فى التقدم لخطبة فتاتى .. لكنها وصارحتنى بأنها قد عرضت الأمر على أبيها وكان وقتها سفيرا خطير الشأن فواجهها بالرفض الصارم ، لأنى كما قال سامحه الله لست من مستواها الاجتماعى .. ومع أنى لست جريئا فقد وجدت نفسى أطلب منها أن تقدمنى إليه لأقنعه بنفسى ، وترددت طويلاً ثم وافقت تحت الحاحى ، فذهبت إليه فى بيته .. وفتح لى الباب سفرجى يرتدى القفطان والحزام الأحمر وقادنى إلى صالون كلاسيكى عتيق ثم جاء إلى أبوها بعد قليل ورحب بى بأدب وتحفظ .. ثم نظر إلى صامتا، وتكلمت وقلت كلاما كثيرا .. كثيرا .. لكنه لم يهتز له رمش واحد وقال هو الآخر كلاما كثيرا عن صعوبة الحياة .. وأن ابنته قد تعودت على مستوى معيشة معين.. وأن من يحب يضحى فى سبيل سعادة حبيبه ، وأنها شبه مخطوبة إلى أحد أقاربها الذى ينتظره مستقبل باهر إلى آخر هذا الكلام . كان الرجل مهذبا لكن كلماته كانت تقطع من لحمى بالسكين .. فشكرته وخرجت والتقيت بها مع شقيقتى بعد ذلك بيومين ..

وتكلمت شقيقتي نيابة عنها وحاولت أن تخفف عني الأمر .. وقالت لي أن أباها عنيد وصارم وأنه مصر على زواجها من قريبه الدبلوماسي وأنه حين استشعر ميل أمها لتأييد إبنتها في مطلبها .. حذرها من أن أية محاولة من جانب ابنتها لفرض هذا الزوج عليه لن تكون لها نتيجة سوى انفصاله هو «عنها» أي هدم الأسرة كلها ..

وهكذا وجدت نفسي في طريق مسدود ، فأعفيتها من عهدها لي وتمنيت لها السعادة .. وحاولت بعد ذلك أن أدفن همومي في الاستعداد لزواج شقيقتي .. وزفت شقيقتي إلى زوجها .. وكان حفل الزفاف حزينا كمعظم أيامنا .. فلقد بكت أختي في صباحه كما لم تبك من قبل لأنها سوف تتركني .. مقطوعا من شجرة .. كما قالت .. وحاولت التخفيف عنها وقلت لها أنها لن تتزوج في المريخ وإنما على بعد ٣ عمارات من بيتي وإنني سوف أزورها كل يوم حتى تزهق مني ، وحاولت بعد ذلك أن أتظاهر بالمرح لكي أجعلها تضحك وتبتسم .. لكنه يبدو إنني بالغت في ذلك أثناء الزفة .. حين أمسكت العصا لكي أرقص لأول مرة في حياتي .. ورقصت ثم توقفت فجأة حين لمحت دموع العروس تنساب بغزارة من عينيها ..

والحق أني كنت سعيدا من أجلها .. ومثقلا بالحزن من أجل نفسي .. لكن ماذا أفعل ؟! وهذه هي سنة الحياة؟؟

وعملت في إحدى شركات القطاع العام .. وشغلت نفسي بالعمل وتجنبت شقيقتي أن تشير إلى أخبار

صديقتها معي ، ولكني عرفت من زوجها الذي اصبح الصديق الوحيد لي في الحياة ، إنها تزوجت من قريبها الدبلوماسي ورحلت معه إلى إحدى العواصم الأوروبية وأنها تراسل شقيقتي من حين إلى آخر .. وبدأت شقيقتي تلح علي في الزواج لكي تطمئن على أحوالي وصارحتها بأني لم أحب أحدا في حياتي سوى صديقتها ، لكنها نصحتني بأن أحاول التخلص من تقوقعي على نفسي وأن أنظر حولي في الشركة التي أعمل بها ، ونظرت حولي فوجدت مهندسة تتقرب لي وتحاول أن تخطب ودي .. لم أشعر بالحب تجاهها لكني لم أغلق الباب أمامها ، ثم بعد مشاورات مع شقيقتي خطبتها وتزوجتها وأنا لم أبرأ بعد من حبي لفتاتي الأولى .. وفشلت التجربة فشلا ذريعا بعد ٣ أعوام لاأعرف كيف تحملتها والحمد لله أننا لم ننجب أطفالا .. فاستغفرت ربي فيما لا يد لي فيه وطلبت منها أن تسامحني لأني لا أصلح لها .. وكانت هي قد ملت أيضا فيما يبدو الحياة معي بعد أن كثر هجرها للبيت ، فوافقت بلا مرارة على الطلاق وأديت لها حقوقها .

وعدت أشغل نفسي مرة أخرى برعاية أختي .. خاصة بعد أن رزقت بطفلين أشاعا البهجة في حياتي .. وكان من عادتي بعد أن أخرج من عملي أن أشترى بعض اللوازم لشقيقتي التي لم تعد تستطيع الخروج كثيرا بعد الإنجاب ، ثم أذهب إليها بها وذهبت إليها ذات يوم ففتحت لي أختي الباب وفي عينيها نظرة جديدة فسألتها ما بك ؟ .. فقالت : أدخل .. لدينا صديقة قديمة

تنتظرك .. فدخلت وإذا بى أجد نفسى أمامها وجها لوجه جالسة فى الصالون جميلة نحيلة .. هادئة .. رقيقة كالعادة تنظر إلى من وراء غلالة خفيفة من الدمع.. ووقفت ألتقط أنفاسى مبهورا ..

وعرفت بعد ذلك تفاصيل القصة ، إنها لم تنقطع عن الاتصال بأختى طوال السنوات الماضية ومنها كانت تعرف كل شىء عنى ، وإنها عاشت مع زوجها ٤ سنوات من العذاب انتهت بالانفصال وهما فى الخارج وعادت وحدها منذ أسابيع كسيرة القلب بعد أن ذاقت الأهوال مع زوج لم يرع حقوقها وكان زواجه منها فى الأصل «زواج مصلحة» للاستفادة من نفوذ صهره !!

وبعد هذا اللقاء .. كنت بالتفاهم مع شقيقتى قد بعت البيت القديم الذى نملكه واستأجرت بنصيبى شقة لائقة وأثثتها بأثاث لائق .. ثم ذهبت إلى أبيها على غير موعد فى النادى الذى يمارس فيه رياضته الصباحية ، وقلت له أن ورائى سنين من العذاب تشفع لى فى الدفاع عما بقى من عمرى .. وإننى أطلب يد ابنته للمرة الثانية فإن وافق شكرته .. وإن أصر على إتعاسها وإتعاسى .. فلن ننهزم أمام عناده مرة أخرى وسوف نتزوج وافق أو لم يوافق ، فاستمع إلى فى صمت ورفع حاجبيه فى كبرياء ثم نطق سامحه الله بجملة واحدة هى : «إذهبا فى داهية أنتما الاثنان» ، ثم استدار وواصل رياضة المشى!!

وهكذا ذهبنا إلى عش السعادة .. ولم يعترض الأب ولم يخرج عن تحفظه معنا واقمنا حفلا صغيرا فى بيت شقيقتى لم يشهده أحد سوى أم فتاتى وبعض

الصديقات .. وأرادت شقيقتى أن تعبر لى عن فرحتها فحاولت أن تزغرد .. فخرجت الزغرودة كأنها ولولة .. ولاحقتها دموعها ودموعى .. فأصبحت ولولة بالفعل .. كأننا لانعرف غير البكاء .. وبدأت حياتى الحقيقية وأنا فى سن الـ ٣٢ سنة وحبيبتى فى سن الـ ٢٩. وكنت قد تركت شركة القطاع العام التى بدأت حياتى بها وانتقلت إلى شركة استثمارية بمرتب معقول وأصبحت لدى سيارة مقبولة .. واطمأنت شقيقتى على أنى حققت أحلامى .. ولم يكن لنا أصدقاء غيرها وزوجها فكنا نمضى الأمسيات معا لدينا أو لديهما .. وعشنا ٥ سنوات كأنها أسابيع .. وكانت أجمل فتراتها هى العام الخامس.. ففيه بلغت زوجتى القمة فى رقتها .. وفى عطفها على .. وفى كل شىء رغم أنى كنت أضبطها أحيانا ساهمة أو تختلس إلى بعض نظرات العطف أو الرثاء وكأنها تشفق على من شىء مجهول .. ثم عدت ذات يوم إلى عش أحلامى فلم أجد فتاة أحلامى فيه .. وإنما وجدت ورقة منها .. تطلب منى فيها .. هل تعرف ماذا ؟؟..

الطلاق ..! نعم الطلاق .. فتاتى .. حبى الأول والأخير.. عمرى المسروق منى الذى عاد بعد العذاب .. تطلب منى أنا الطلاق . لقد عشنا معا ٥ سنوات لم نختلف خلالها مرة واحدة على شىء .. لم نبت ليلة واحدة إلا ويدى ممسكة بيدها كأنى أخاف عليها أن تضيع منى وأنا نائم.. وهى نفس الشىء فماذا حدث ؟ .. وجريت إلى بيت أبيها .. وقابلتها .. ماذا جرى ؟؟

لا جواب .. ماذا غيَّرك ؟ لا رد.. لماذا تطلبين الطلاق ؟ لا إجابة سوى الدموع !! هل اشتقت للحياة فى مستوى حياة أبيك ؟ إننى على استعداد للهجرة وقبول أى عمل فى الخارج لأوفر لك المستوى الذى تريدينه ؟.. لا جواب سوى الدموع .. ثم زاد إلحاحى عليها لتتكلم فأغمى عليها ، وجاءنى الأب «منفعلا» : من فضلك كفاية كده .. مش عاوزة تعيش معاك وخلاص من غير أسباب .

وخرجت مدحورا مهزوما .. وجريت إلى أختى .. وجرت أختى إليها وعادت من عندها مهزومة مثلى .. وقلت لها إننى سأحقق لها أى مطلب تريده .. لكنى أريد أن أعرف لماذا .. لأعرف عيبى فقط .. وماذا قصرت فيه فلم أسمع من أختى جوابا شافيا .. واستسلمت للأقدار ، وحددنا يوما للذهاب للمأذون ليتم الطلاق على يديه فى مكتبه لأجنبها مهانة أن تأتيها ورقة الطلاق عن طريق قسم الشرطة ، وأجرى المأذون أغرب طلاق أجراه فى حياته ، كنا خمسة هى وأنا وشقيقتى وزوجها وصديق له جاء للشهادة وبدأ المأذون عمله بتقديم نصائحه التقليدية بمراجعة النفس وكيف أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله الخ .. ففوجىء بالزوج والزوجة ينفجران فى البكاء أمامه ومعنا أختى .. وكانت مناحة رقدت محموما مريضا بعدها ثلاثة أيام فى بيت شقيقتى .. ومرت الأيام بطيئة ثقيلة وبدأت أسترد وعيى شيئا فشيئا ، وكان أول ما فعلته هو أن طلبت نقلى بصفة مؤقتة إلى موقع للشركة فى الصحراء الغربية ، وذهبت إليه وانقطعت عن القاهرة وأخبارها لمدة ١٠ شهور

متواصلة.. لا يربطنى بالحياة خارج الموقع سوى رسائل شقيقتى، وسوى الصحف اليومية التى تصل إلينا كل يومين .. وذات يوم كنت أقرأ الصحيفة فوجدت نفسى أقرأ نعى فتاة أحلامى مكتوبا تحت اسمها إنها حرم المهندس فلان الفلانى الذى هو أنا !! وسقطت مغشيا على .. وحين أفقت حملنى زملائى إلى القاهرة وفيها عرفت وفهمت كل ماعجزت عن فهمه طوال الشهور الماضية .. وكأننى أشاهد فيلما من أفلام المآسى التى لا يصدقها أحد .. فلقد عرفت أن فتاتى قد واجهت خلال العام الأخير معى مشكلة صحية حادة تأكدت من أنها حالة ميئوس منها .. فقررت الإنفصال عنى لكى تجنبنى عذاب المرحلة الأخيرة من المرض .. ولكى تحافظ كما قالت لأختى ولأمها ولأبيها على صورتها الجميلة الحالمة فى خيالى وعرفت أنها سافرت للخارج مرتين بعد انفصالها عنى وأنها كانت تعرف أنى سأعجز عن توفير تكاليف السفر فأرادت أن تجنبنى الإحساس بالعجز والقهر وهى معى .. وعرفت أنها نذرت لله نذرا إن شفيتْ أن تعود إلىَّ لتواصل رحلة السعادة معى وأنها حين اقتربت لحظتها الأخيرة طلبت من أبيها أن يذكر فى نعيها أنها حرم المهندس فلان .. لأنها تعتبر نفسها زوجتى رغم الطلاق ، فوفى الرجل بوعده لها .. ورأيته حين زرته لأعزيه يحتضننى لأول مرة ويقبلنى ويقول لى أنه يحبنى لأنى أسعدت ابنته فى السنوات الأخيرة من حياتها .. ويطلب منى أن أعده بزيارته كلما وجدت الفرصة .

وهكذا انتهت هذه القصة الطويلة يا سيدى .. ووجدت نفسى مرة أخرى وحيدا .. أعيش فى الشقة التى عشت فيها أجمل أيام حياتى ولم يمض على الفصل الأخير من قصتى سوى فترة قصيرة .. وقد حفر الزمن آثاره على وجهى .. فأصبح لون شعرى رماديا ومازال عمرى ٣٨ سنة وشقيقتى حزينة من أجلى تبكى كلما زرتها وتحذرنى من أن الزمن يسرقنى .. وإننى «أعجِّز» وسوف يفوتنى قطار الشباب وتطالبنى بالزواج .. لكنى عاجز عن التفكير فيه .. وحتى لو فكرت فيه هل يستطيع مثلى أن يكرر التجربة للمرة الثالثة .. إن الشاب الذى يقترب من الأربعين يصعب عليه أن يعثر بسهولة على الزوجة اللائقة بحجة أن سنه قد كبرت ..

ومن طلق مرة قد يصعب عليه أن يجد بسهولة الزوجة التى يرضاها لنفسه بحجة أنه مطلق .. فما بالك بمن شارف الأربعين وقد طلق مرتين ؟!!

وأين هى التى تعرف عنى كل هذا التاريخ ثم تقبل أن تربط حياتها بحياتى وهل سأظل أشرح لمن يسألنى أنى طلقت الأولى أشفاقا منى عليها من معاشرة لا حب فيها.. وطلقت الثانية إشفاقا منها علىَّ من عذاب أرادت أن تبعدنى عنه !! أم بماذا تنصحنى ؟؟

□ ولكاتب هذه الرسالة أقول : ياسيدى إن من يشاهد فيلما مأساويا حزينا .. يحتاج بعد انتهائه إلى فترة صمت يلتقط خلالها أنفاسه ويسترد نفسه بعد مابذل من انفعالات .. فما بالك بمن عاش أحداث الفيلم بنفسه ؟؟ وما بالك لو كانت هذه الأحداث مؤلمة إلى هذا الحد وحزينة إلى هذا الحد ؟ .. إنك فى حاجة أولا إلى فترة استجمام نفسى كافية حتى تلتئم جراحك .. وتستعيد توازنك قبل أن تفكر فى أى خطوة جديدة للمستقبل .. وبعد ذلك سوف نفكر معا إن شاء الله فيما هو أنسب لك ، فأما عن ظروفك فما أكثر المنصفين الذين يتفهمون ظروف الآخرين ويلتمسون لهم الأعذار وأما عن طلاقك مرتين فما أكثر من سيتفهمون أسبابهما ويقتنعون بأنها ليست دليلا على أنك لن تكون زوجا فاضلا لأى سيدة تختارها الأقدار لك من جديد .. فحتى طلاقك الأول وهو خطيئتك الوحيدة فى القصة كلها له أسبابه المفهومة كما إنك لم تتعسف مع زوجتك ولم تكن قاسيا معها لذلك فقد قبلت هى الطلاق بلا أحقاد ولا مرارة ولعله كان الحل الأفضل فى مثل ظروفكما حيث لا حب ولا أبناء ..

أما الفصل الأخير من قصتك فلقد أرهقنى كثيرا ولولا أننى من كثرة ما عايشت من هموم البشر لم أعد أستغرب شيئا ، لما صدقته ، لكنى أصدق كل حرف كتبته فى رسالتك .. لأنه نابض بالألم الصادق فعلا .. ولأن النائحة الثكلى ليست كالمستأجرة .. فلا يستطيع أحد أن يصور هذه اللحظات بهذه الطريقة إلا إذا عايشها فعلا ، ولا شك أن الحياة هى المؤلف الأول فى العالم بلا شك .. وقد اختارت لك دورا مغلفا بالحزن الشفيف منذ البداية ، أو هكذا كان قدرك .. شقيق وشقيقة وحيدان تماما بلا أبوين ..

ولا أشقاء .. ولا أقارب .. من هؤلاء الأشخاص الذين يحس المرء غالبا بأن أحزانهم أكثر من أفراحهم .. وأنه حتى أفراحهم فإنها حين تجيء تكون قصيرة العمر ومن النوع المثقل بالهموم فتستدر الدموع إذا عبرت عن نفسها أكثر أحيانا مما تثير البهجة ، كما حدث في زفاف شقيقتك .. وفي زفافك أيضا وفي معظم فصول القصة . وفي الحياة من أمثالكما كثيرون ، وفيها مثيلات لقصتك أيضا لكني لم أصادف قصة كقصة هذا الفصل الأخير الذي اختارت فيه فتاتك الملائكية أن تحجب عنك آلامها لتحتفظ لنفسها بصورتها الرومانسية الجميلة في خيالك .. ثم انتحت جانبا بعيدا لترحل في صمت بعد أن عزفت أجمل الأنغام في حياتك تماما كالبجعة البيضاء الرقيقة التي تصدر دائما أحلى أصواتها على مدى عمرها كله .. في اللحظات القليلة السابقة للختام ولذلك يطلقون على اللحظات الجميلة التي تسبق الوداع دائما اسم أغنية البجعة !! وفي حياة كل إنسان أغنية للبجعة ابتهج فيها أقصى ما يكون الابتهاج.. ثم حزن بعدها أقصى ما يكون الحزن .. وهي رغم كل ذلك الحياة .. ونحن مطالبون بأن نحياها كما هي وأن نتقبل كل ما تقذفنا به أحيانا من كرات اللهب .. وأن نصبر عليها حتى تخمد نارها وتهدأ ككل شيء في الحياة .. فاستجم أولا يا صديقي حتى تسترد صحتك النفسية وتتيح لنفسك فرصة الاختيار السليم ، ثم خض تجربتك الجديدة

مسلحا بخبرة الحياة مصهورة بنار الألم ، واحتفظ بفتاتك في أعماق صدرك .. واحمل لها دائما أجمل الذكريات .. لكن لا تطالب أحدا بأن يكون صورة منها.. ولا تبحث أيضا عن صورة لها في أحد ، ولا ترتبط أبدا إلا بمن تجد في نفسك ميلا قويا لها .. حين تكون قادرا على ذلك ، لأن بداية إحساسك بهذا الميل هو بداية الشفاء بإذن الله من آثار التجربة الأليمة .. لكن لا تضع من ستختارها لك الأقدار موضع المقارنة مع فتاتك .. وإنما تقبلها بشخصيتها المميزة وعش تجربتك معها منفصلة عن أي تجربة سابقة أخرى . ولعل كل ما عانيته يشفع لك في النهاية لدى الحياة في أن تنال نصيبك العادل من السعادة ، بعد كل هذه الفصول الحزينة ..

زواج .. على ورقة طلاق(*)

أواظب منذ فترة طويلة على قراءة المشاكل التي تعرض في بريد الجمعة على أمل أن أجد مشكلة شبيهة بمشكلتي فأستفيد بالرد عليها ، فلم أجد مشكلة قريبة منها حتى الآن .. لذلك أكتب إليك وأطلب رأيك فيما أواجهه ..

وفي البداية أقول لك أنني طالبة بكلية مرموقة على وشك التخرج ، والدي ووالدتي أستاذان جامعيان محترمان في مجالهما وفي وسطهما العائلي وأسرتي محترمة ويشغل عدد من أفرادها مراكز كبيرة .

ومنذ ٥ سنوات تزوجت شقيقتي الكبرى والوحيدة وهي طبيبة من طبيب زميل لها كانت تجمعها به قصة حب عميقة ، وسعدنا بهذا الزواج الناجح من كل الوجوه.. وعاشت شقيقتي سعادتها مع زوجها لحظة بلحظة وأنجب الزوجان طفلة جميلة اكتملت بها سعادتهما ، ومنذ ميلاد هذه الطفلة ارتبطت بها بمشاعر خاصة فكنت كثيرا ما أزورهما لكي أراها وأداعبها .. وفي بعض الأحيان كنت أزورهما مرتين في اليوم لكي

(*) زواج على ورقة طلاق اسم مسرحية للكاتب المسرحي الأستاذ الفريد فرج وقد استعرته لهذه القصة لملاءمته الشديدة لها .

أرى الطفلة وأمضي لحظات سعيدة معها ، وكثيرا ماخرجت مع شقيقتي وزوجها والطفلة في رحلات نهاية الأسبوع إلى أماكن عديدة ، وخلال ذلك حصلت على الثانوية العامة بتفوق وكنت من العشرة الأوائل على مستوى الجمهورية والتحقت بكلية مرموقة وواصلت تفوقي فيها بامتياز وتقدم لخطبتي معيد بنفس الكلية من أسرة طيبة وصديق لأسرتي فرحبت به بعد أن كنت قد رفضت غيره ، والحق أنه بهرني بشخصيته ووسامته وأناقته وتهافت الطالبات عليه وقد فرحت به لأنه اختارني وأحببته حبا عظيما بادلني به حبا أعظم منه وحددنا موعدا لإعلان الخطبة .. وبدأت أستعد لها ، وأعد الفستان الذي سأرتديه فيها .. وأعد بطاقات الدعوة التي سنوجهها .. وأتشاور مع خطيبي في عدد الزميلات والزملاء الذين سندعوهم .. وبينما نحن طائران على أجنحة السعادة .. وقع لشقيقتي الطبيبة حادث مؤلم وهي تقود سيارتها عائدة من عملها فتوفيت على الفور قبل أيام من خطبتي .. ورانت سحابة ثقيلة من الحزن على حياتنا .. ثم تأجل إعلان الخطبة بالطبع واستغرقنا الحزن على هذه الشقيقة الوديعة الشابة وعلى طفلتها الصغيرة الجميلة التي راحت ببراءة عمر السنوات الثلاث تسأل الجميع عن «ماما» وتتعجب لتأخرها كل هذا الوقت في العمل !

مضت الأيام ثقيلة حزينة .. والطفلة تعيش معنا لأن أباها لا يستطيع رعايتها وحده .. ثم فوجئت بأبي وأمي

يتشاوران ويتهامسان وسط الأحزان ثم يبلغانني بما كنت أجهله .. وهو أن زوج شقيقتي قد استأذن أبي في أن يتزوج لأنه لا يستطيع أن يمضي حياته وحيدا ، وكيف أنهما قد بحثا الأمر طويلا ووجدا أني الإنسانة الوحيدة التي تصلح زوجة له لأن الطفلة لا تأنس لأحد ـ في الدنيا بعد وفاة أمها ـ غيري .. ولأنه من غير المعقول أن تعيش الطفلة اليتيمة مع زوجة أب لا أحد يضمن حسن معاملتها لها .. ولأنه لن يكون لها أم أكثر حنانا عليها بعد أمها مني .. الخ .

وفوجئت بهذا الأمر ، ولم أستطع أن أقاومه ، خشية أن يتهمني الجميع بالأنانية والجحود ، فذهبت إلى بيت أسرة خطيبي وقابلته مع أفراد أسرته وصارحته بالأمر فجن جنونه وانفعل وتوجه إلى أسرتي منفعلا فأصروا على موقفهم وانقطع حبل الرجاء .

وتزوجت ياسيدي زوج شقيقتي الراحلة وانتقلت إلى بيتها .. لكني من أول لحظة بعد الزواج صارحته بأني تزوجته من أجل هذه الطفلة وأني لا أتصور نفسي في مكان شقيقتي منه وأن علينا أن نحيا «كإخوة» ونؤدي دورنا في الحياة وهو رعاية الطفلة وحمايتها من مؤثرات الحياة مع زوجة أب قد لا تكون رحيمة بها، وعلى عكس ما توقعت فوجئت به يقبل ذلك .. فعشنا غرباء تحت سقف واحد أعيش مع ابنتي في غرفة واحدة.. وقد سعدت بوجودي مع أبيها في بيت واحد وبدأت تنسى أمها وتكف عن السؤال عنها ومضت بنا

الحياة .. فكنت أستيقظ في الصباح مبكرة فأساعد ابنتي على ارتداء ملابسها ثم نجلس نحن الثلاثة إلى مائدة الإفطار ويخرج كل منا إلى طريقه هو مع ابنته في سيارته ليتركها في دار الحضانة ثم يتوجه إلى عمله ، وأنا بسيارتي إلى كليتي وبعد الدراسة أعود إلى بيتي فأجده قد أعاد ابنتي في طريق عودته من المستشفى فنجتمع على مائدة الغداء ، وأرعى شئونه وشئون ابنتي بكل إخلاص ثم يخرج هو إلى عيادته واستسلم أنا إلى مذاكرتي حتى ساعة متأخرة من الليل لأحتفظ بتفوقي ولك أن تتصور مدى الحرج الذي كنت أعانيه كلما التقيت بخطيبي السابق بالكلية إذا التقينا .. أو تلاقت عيوننا رغم أن كلا منا كان يتجنب الحديث مع الآخر .. ولك أيضا ياسيدي أن تتصور التساؤلات ونظرات الإشفاق التي كنت أراها في عيون زميلاتي وزملائي الذين علموا جميعا بملابسات قصة زواجي لأنه لا شيء يخفى على أحد .

واستمرت حياتنا هكذا لمدة حوالي عام .. ثم بدأ زوجي يضيق بما نحن فيه ويطالبني بأن نحيا الحياة الطبيعية فتمسكت بموقفي فهددني بأنه سوف يتزوج إذا لم أغير موقفي منه لأنه لا يريد الانحراف .. فوافقته على فكرة الزواج على أن يترك لنا الطفلة ويعطيني حريتي إلى أن تبلغ السن القانونية فيستردها .. فنظر إلي طويلا ثم قال : ما كان من الأول ! ثم ذهب إلى أسرتي وصارحها بحقيقة حياتنا التي كتمها عن الجميع

لمدة سنة وكتمتها أنا بدورى ، فأيده الجميع فى موقفه.. وطالبونى بالعدول عن موقفى ولم يقف إلى جانبى أحد حتى أعمامى وأخوالى وزوجاتهم طالبونى جميعا بأن أحافظ على حياتى الزوجية وأن أطيع زوجى .

لكنى لم أستطع ياسيدى .. وطلبت منه الطلاق فرفض وقد بدأ يحس بأنى لا أريده لكى أتزوج من خطيبى السابق .. وتعكر صفو حياتنا وبدأت أحس بالخوف منه .. ثم لم أستطع أن أتحمل حياتى معه على هذا النحو بعد أن فقدت هدوءها السابق فتركت بيت الزوجية وعدت إلى بيت أسرتى والطفلة معى ، لكنه لا يكف عن الحضور إلينا كل يومٍ مطالبا بزوجته وابنته وأنا أرفض والجميع يلحون علىّ بذلك .. حتى ذهبت إليه فى عيادته بعد أن ضقت ذرعا بكل ذلك وحاولت أن أتفاهم معه بهدوء على أن يطلقنى ويترك لنا الطفلة ويتزوج هو بمن يشاء ويعيش حياته كما يريد .. لكنه متمسك بى بطريقة «استفزازية» .. لماذا ؟ لا أعلم ! وموقف أسرتى مازال كما هو .. والكلام المعاد حفظته عن ظهر قلب .. فماذا أفعل ؟ هل أسافر إلى مكان لا يعلمه أحد ؟ إننى على وشك التخرج فهل حرام على شابة مثلى أن تعيش حياتها وأن تتمتع بشبابها قبل أن يذبل .. لقد ضحيت بأشياء كثيرة فكانت النتيجة هى ما أعيش فيه الآن من نكد وعذاب فقل لى ماذا أفعل .. وكيف أتصرف فى هذه المشكلة وأعدك بأن أنفذ ما تنصحنى به بالحرف الواحد ودون تراجع فهل تفعل يا سيدى ؟

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : نعم أفعل ياسيدتى والله المستعان على ما تصفون ! فأقول لك فى البداية أننى لست مقتنعا بضرورة هذه «التضحية» التى أقدمت عليها .. ومازلت أعجب من تفكير أبويك الأستاذين الجامعيين اللذين أرغماك عليها بغير حساب لمشاعرك العاطفية تجاه خطيبك السابق .. ولا لحقك فى أن تحيَىْ الحياة التى تختارينها لنفسك.. لسبب بسيط هو أن رعاية الطفلة البريئة كانت ممكنة جدا فى بيت أسرتك إلى أن تبلغ من أمرها رشدا يهيئها لتقبل حقائق الحياة المريرة .

ولا يعنى ذلك أن التضحية فى حد ذاتها خطأ .. لكنى أعنى أنها تصبح خطأ حين يُرغم الإنسان عليها أو حين يقدم عليها وهو غير مستعد لتقبلها ولا مهيأ لتحمل تبعاتها .. وأنت فيما أتصور لم تكونى مستعدة عاطفيا لقبولها .. لذلك فقد أخطأت فى حق نفسك حين قبلت هذا الزواج وأخطأت فى حق زوجك الذى لا ذنب له ولا جريرة فى هذه الأقدار التى حرمته من زوجته وحكمت على طفلته الوحيدة باليتم ، حين قبلت الزواج منه وأنت تضمرين فى قرارة نفسك ألا تستمر التجربة معه إلى نهايتها ..

وأخطأت بل أجرمت فى حقه حين لم تصارحيه «بنوع» الحياة التى تنوين أن تعيشيها معه وذلك قبل الزواج وليس بعده فإما أن يقبل وهو أمر مستبعد .. وإما أن يرفض وهو الأقرب للمنطق !

فتتوقف التجربة قبل البداية وبلا خسائر عاطفية وإنسانية بالنسبة له ولك على السواء .

لقد كان زوجك حكيما حين قبل مضطرا فى ضوء الظروف المأساوية المحيطة بالقصة كلها ، أن يحيا معك حياة الغربة الداخلية كما طلبت وكان صبورا أيضا حين صبر على استمرارها حوالى السنة .. على أمل أن تخلق الحياة المشتركة الروابط الطبيعية التى تذيب الجليد بينكما ، لكن لكل شىء حدوده ياسيدتى ولا يصح فى النهاية إلا الصحيح فإما زواج يحقق الغرض الكامل من «تضحيتك» وإما لا زواج ولا تضحية ولا تمسح بها من البداية .

ومن عجب أن رسالتك لم تشر من بعيد أو قريب إلى أية «مثالب» أو أخطاء شخصية يمكن أن يحاسب عليها زوجك وتكون مبررا لاستحالة الحياة معه .. فهو شاب مقبول من كل الجوانب وأخلاقه طيبة بدليل حكمته وصبره .. ورفضه للانحراف .. وهو أمر يسير بالنسبة له ـ فما هو خطأه إذن ؟ هل هو تمسكه «الاستفزازى» بك كما تقولين ؟ إذا كان الأمر كذلك فلعله أمر يحسب له لا عليه .. ولعله أمر جدير بأن تغبطك عليها أخريات .. لا أن تضيقى به .

يبقى إذن احتمال واحد هو الأقرب إلى المنطق .. وهو أنك لم تقدرى مشاعرك تجاه خطيبك السابق التقدير السليم حين أقدمت على هذا الزواج .. وأن حلمك القديم معه مازال حيا فى مخيلتك .. وهو حلم

لا مكان فيه «لابنتك» التى قلت أنك قبلت التضحية من أجلها .. وفى ذلك فلقد جنيت على زوجك كما جنيت على نفسك بالإقدام على هذه التجربة .

ومن الإنصاف أن يذكرك المرء بأنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه .. وبأن الرياح قد تأتى أحيانا بما لا تشتهى السفن .. وبأننا قد نتصور أحيانا سعادتنا فى تغيير حياتنا بلا تدبر فنضحى بما فى أيدينا طلبا للسعادة .. ثم تصدمنا الأيام بما لم نتوقعه .. ونرتجيه ؟

فإذا سألتنى عن رأيى . . فإنى قد أنصحك بألا تتسرعى مرة أخرى فى هدم الزواج كما تسرعت من قبل فى بنائه وأنصحك بمعاودة التفكير فى الأمر كله بعين جديدة تتعامل مع زوجك كإنسان له حقوق كما أن لك حقوقا .. وله مشاعر وأحاسيس كما أن لك مشاعر وأحاسيس ويمكن أن تنبهر به أخريات .. فلعلك لو تعاملت معه كإنسان وليس كزوج لشقيقتك الراحلة لرأيت فيه ما لم تريه من قبل .. ولاكتشفته من جديد ووجدت فيه ما يجذبك إليه ويحبب إليك الحياة معه .

فإن انتهت فترة مراجعة النفس .. إلى غير هذه النتيجة فلا مفر من أن يبدأ كل إنسان حياته بعيدا عن الآخر ولا مفر من أن تقدما على الخطوة التى كان يمكن تجنبها لو غلبت أنت وأسرتك من البداية العقل على العاطفة وتعاملت مع المشكلة بواقعية تامة ..

فإذا ساءك بعض ما قلته لك .. فإني لم أفعل أكثر من أن وضعتك أمام نفسك بلا مداراة .. ولا مواربة ولأن تعرفي نفسك جيدا وتتصرفي على أساس من ذلك خير من الاستمرار في خداع النفس الذى لا يثمر إلا الأخطاء والتجارب الفاشلة .. فإن أغضبك ما قلت فلا لوم عليّ فقديما قال أرسطو وهو يدحض بعض آراء معلمه : أفلاطون صديقي وأستاذي لكن الحق أولى بصداقتي من أفلاطون .. وما أحوجنا إلى أن نتذكر ذلك دائما في حياتنا العامة والخاصة على السواء !!

سجن الذكريات

أكتب إليك ياسيدى هذه الرسالة لأستشيرك فى أمرى .. فأنا سيدة فى السابعة والعشرين من عمرى تخرجت فى كلية الآداب منذ ٦ سنوات وعملت أمينة لمكتبة إحدى الهيئات عشت فترة صباى ودراستى بالجامعة كلها بغير أن أرتبط بأحد أو تكون لى أية تجارب وأنا وحيدة أمى وأبى .. وقد تربيت فى بيت صغير يظلله الحب والتفاهم فكانت علاقة أبى بأمى دائما مثالية ، وكنت أراهما دائما صديقين يتبادلان الحب والعطف والاهتمام ويشركاننى معهما فى هذا الحب والاهتمام . وكان أبى مديرا بإحدى الهيئات لا يملك سوى مرتبه لكن أمى كانت تشعرنى دائما بأننا أغنى أسرة فى العالم بالحب والتفاهم ، ومنذ طفولتى تعودت أن أراهما أول كل شهر جالسين إلى مائدة السفرة فى جلسة «الميزانية» حين يعود أبى من العمل .. ثم يعطيها مرتبه وكل ما تقاضاه من مكافآت ويجلسان ويضعان تخطيطا لميزانية الأسرة خلال الشهر .. ويقسمان الدخل على مطالب الأسرة وبعد ذلك يضعان كل النقود فى درج البوفيه بالصالة داخل كراسة .. وكلما احتاج أحد إلى شيء أخذه بدون الرجوع إلى الآخر ولكن فقط بعد أن يقيده فى الدفتر .. ومازلت أذكر أنى لم ألمح أبى

وأمي مرة واحدة مختلفين فى شيء أو متخاصمين .. بل كثيرا ما رأيتهما فى جلسة أول كل شهر يؤثر كل منهما الآخر على نفسه .. هو يريدها أن تشترى فستانا للصيف أو للشتاء من ميزانية الشهر .. وهى ترفض وتذكره بأن قمصانه قد أوشكت على البلى وأن عليه أن يشترى قميصين هذا الشهر .. وعندما وصلت إلى السادسة الابتدائية أشركانى فى هذه الجلسة .. وأصبحا يسألاننى عن مطالبى لتدبير تكاليفها .. بل وأصبحت كما كان يقول أبى سكرتيرة الجلسة .. التى تقوم بكتابة بنود الميزانية .. وهكذا تعلمت أول دروس حياتى وهو المسئولية والمشاركة .. وأن الحب كفيل بحل كل المشاكل..

وصدقنى أننا لم نواجه أزمات حقيقية أبدا ، بل كانت لنا مدخرات صغيرة لا تزيد على بضعة جنيهات نقتطعها من دخل الأسرة كل شهر ، وظلت تتراكم فى الكراسة حتى أصبحت عدة مئات . كما كانت لنا متعنا البريئة .. وسهراتنا .. ونزهاتنا البسيطة .. وفى ليالى الصيف كنا نخرج نحن الثلاثة لنمشى على الأقدام فى الحديقة التى تتوسط الميدان الصغير الذى تطل عليه شقتنا ..

وكانت هذه الحديقة وهى مجرد مسطح أخضر من النجيل بلا سور هى تسليتى فى أيام الأجازات فكثيرا ما كنت أجلس فى الشرفة أقرأ رواية وأرقب الأطفال يلعبون فيها وتسقط فى شرفتى التى تقع بالدور الأرضى أحيانا كرة أحدهم فألقيها إليه .. أو أطلب منه

أن يصعد ليأخذها لأتكلم معه قليلا وتضحك أمى وتقول لى : أنت تحبين الأطفال لأنك بنت وحيدة بلا أشقاء !

ثم رحل عنا أبى وأنا طالبة فى السنة الثانية بالجامعة وأظلمت حياتنا طويلا .. لكن أمى تماسكت وطالبتنى بتحقيق آماله فى النجاح والحصول على الشهادة وبالفعل حصلت على الليسانس بتفوق والتحقت بالعمل .. وأصبحت ذكرى أبى شيئا عزيزا فى أعماقنا نذكرها بالحب .. ونذكر ليالينا السعيدة ونذكر جلساتنا وأحاديثنا .. لكنها لا تعطلنا عن مواصلة الحياة .. وذات يوم كنت جالسة فى شرفتى فرأيت فى الحديقة شابا فوق الثلاثين ومعه طفلان فى الرابعة والخامسة من العمر يلعبان الكرة وهو يرقبهما ساهما .. ويتمشى بالقرب منهما .

ولا أعرف ياسيدى حتى الآن ما الذى جذبنى إلى هذا المنظر رغم كثرة مشاهدتى لمثله فى الحديقة .. فلقد وجدت نفسى مدفوعة لمراقبة هذه الأسرة .. ومراقبة الأب بوجه خاص .. وترسخ لدى الإحساس بأنه حزين لأمر لا أعرفه .. حتى انتهت فترة اللعب واصطحب الأب طفليه ومشى فى الاتجاه المعاكس لبيتى .. ولم تخرج هذه الأسرة الصغيرة من ذهنى طوال الليل ولا فى الأيام التالية .. بل وكثيرا ما خرجت إلى الشرفة أبحث عنها واكتئب حين لا أجدها ، وبعد أسبوع شاهدتها مرة أخرى .. وتسمرت فى مكانى بالشرفة أرقبهم وتمنيت فى أعماقى أن تسقط كرتهم فى شرفتى لأحدث الطفلين.. لكنها عاندتنى فلم تسقط عندى !!

وتكرر المشهد ٣ مرات خلال الشهر التالى .. وسامحنى إذا قلت لك أننى خلال هذه المرات لم أرفع عينى عن الطفلين .. ولا .. عن الأب الذى لم يلتفت إلىّ إلا بعد مرور شهر طويل !! وحين تنبه إلى بادلنى النظرات.. ثم بعد شهر آخر بادلنى الابتسامات الحزينة من جانبه .. ثم بعد شهر ثالث التحية .. ثم أخيرا ياسيدى سقطت الكرة فى شرفتى ووجدتنى فى انتظارها على أحر من الجمر !!

وهكذا تعرفنا وعرفت سر ابتسامته الحزينة .. لقد فقد زوجته منذ ٤ شهور .. وتحمل مسئولية رعاية الطفلين .. ولأن شقته لا تسمح للطفلين بلعب الكرة فهو يخرج بهما لمدة ساعة كل أسبوع إلى الميدان القريب من بيته رغم عضويته فى أحد نوادى مصر الجديدة ، توفيرا للوقت .. وابتعادا عن النادى الذى تعرف فيه بزوجته وكانا يذهبان إليه مع الطفلين ، كما عرفت أنه يتفرغ لطفليه يوم الجمعة أما باقى الأسبوع فهما فى حضانة أمه التى تسكن فى نفس الحى .. وبعد أسبوع زارتنى شقيقته وتقدم لخطبتى وسألتنى أمى .. هل ستتحملين مسئولية رعاية طفلين صغيرين ؟ فقلت لها : أننى أحب الأطفال .. وقد أحببت هذين الطفلين بالذات وانفتح قلبى لأبيهما منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها وتمنيته لنفسى وقد جمعتنا الأقدار على غير موعد .. هو حزين مجروح وأنا وحيدة يتيمة بلا مال ولا سند فى الدنيا، وقد قبلنى بظروفى .. فلماذا لا أقبله بظروفه .. فلم تعارض أمى .. وتم الزواج خلال أسابيع وسافرنا

إلى جمصة لقضاء أسبوعين من شهر العسل .. وأقبلت على زوجى بكل الحب والحنان اللذين اختزنتهما فى صدرى طوال حياتى ، وبعد ٤ أيام فقط طلبت منه أن يُحضر الطفلين لكى يمرحا معنا على الشاطئ ولكى يعتادا علىّ ويألفانى ، وجاءا فعلا وأمضينا فترة العسل معا وأنا فى غاية السعادة ، وعدنا للقاهرة واتفقنا على عدم الانجاب حتى يكبر الطفلان ويدخلا المدرسة ، وعدت إلى عملى وسعدت كثيرا بحب الطفلين لى وتعلقهما بى .. وأصبحت أصطحبهما معى إلى العمل وأتركهما فى حضانة الهيئة وأذهب إليهما كل ساعة لأطمئن عليهما وبمرور الأيام خرج الطفلان من الأنطواء وأصبحا ينادياننى بماما .. ودمعت عيناى من الفرحة حين سمعتها منهما لأول مرة وبدت الحياة تبشر بالسعادة .. لكن زوجى ياسيدى ازداد انطواء على نفسه.. واجترارا لأحزانه ، وأصبح بمضى الأيام ساهما رغم محاولاتى لإسعاده .. ولا يشركنى فى أفكاره وهمومه ، وأنا التى نشأت فى بيت لم يعرف إلا المشاركة فى المشاعر والأحاسيس وهموم الحياة فهو يفكر وحده ويتصرف وحده فإذا ناقشته فى أى شئ يذكر زوجته الراحلة .. و«يحاكمنى» كأننى السبب فى القدر الذى حرمه منها .. فأبكى وأهرب إلى بيت أمى لمدة ساعات أستعيد فيها هدوء نفسى ثم أعود إليه ..

وبدأت أشكو إلى أمه فتنصحنى بالصبر عليه ، وسمعت والدة المرحومة بهمومى فبكت وقالت لى أنها لم تطمئن على حفيديها إلا بعد أن عاشرتنى ولمست

حبى لهما ومرت الأيام وهو لا يتغير .. وكل ما أطلبه منه هو أن يشركني معه فى مشاكله وفى همومه بل وفى أحزانه وأن نتبادل الحديث والأفكار معا لكى تتقارب القلوب .. لكنه لا يستجيب حتى وجدت نفسى بعد فترة غريبة عنه .. أحبه لكنه لا يشعرنى بمبادلته الحب لى .. ويذكِّرنى كل يوم بما كانت تفعله زوجته الراحلة .. وبما كانت تقول حتى حفظت كل كلماتها وعباراتها المأثورة وشعرت أنها تعيش بيننا وتمنعه من الإقتراب منى حتى إزداد حاجز الصمت بيننا فاستسلمت للحزن ولم أنطق مرة بكلمة تجرح مشاعره أو تسىء إليها .. وكل ما طلبته منه هو أن يضعنى فى الاعتبار ولكن بلا فائدة .. ثم طلب منى أن أذهب للإقامة مع أمى لعدة أيام حتى يفكر بهدوء فى أمرنا .. وبعد يومين جاءتنى شقيقته تقبلنى وتبكى وتقول أنه سيطلقنى وأنه يقول أنه ظلمنى حين تزوجنى .. وتم الطلاق بهدوء ، كما تم الزواج بهدوء .. وانفصلنا بلا أية مشاكل من جانبى أو من جانبه .. وعدت أجلس فى شرفتى وحيدة أنظر إلى الميدان الذى شهد بداية قصتى معه .. وأتذكر محاولاتى معه لاكتساب حبه ، وأتذكر الطفلين وشوقى لهما وأسرح . لقد تقبلت أمى الأمر بواقعية .. وقالت لى يا ابنتى من يحب لا يكره .. فلا تكرهيه ولا تكرهى أحدا .. وأتركى الأمر للعادل الذى فى السماء ..

وها أنا أكتب إليك بعد أن انتهى الزواج الذى لم يستمر سوى ١١ شهرا لأسألك هل هذه هى الحياة حقا

ياسيدى .؟ هل جزاء الحب هو الرفض والإنكار .. وهل هذه هى تجربة كل فتاة تتزوج رجلا فقد زوجته التى أحبها قبلها .. ثم أكتب إليك لأطلب منك أن تناشد كل رجل له ظروف زوجى السابق ألا يظلم بنات الناس ويظلم نفسه معهن وأن يدع بنات الناس فى حالهن إذا كان متعلقا بالذكريات على هذا النحو .. لأن الأفضل له فى هذه الحالة أن يعيش لذكرياته وأطفاله فقط .. أما إذا أراد أن يتزوج فاطلب منه على لسانى ألا يقارن بين زوجته الجديدة وزوجته الراحلة وأن يرضى بقضاء الله ويسلم به ويحاول أن يكيف نفسه مع ظروفه الجديدة لأنها لاذنب لها فيما جرى ، كما أن «الحى» أولى بالرعاية ممن سبقنا إلى العالم الآخر .. والسلام عليكم ورحمة الله ..

□ **ولكاتبة هذه الرسالة أقول : أثمن الدروس هو ماتنتعلمه من التجارب الأليمة ومن الأيام التى تخصم من رصيدنا فى الحياة .. ولقد تعلمت الحكمة ياسيدتى فى أعماق الجحيم وأنت تكافحينَ لاجتذاب قلب زوجك السجين من ذكريات الماضى .. بلا فائدة.. وجاءت كلمات رسالتك الأخيرة أبلغ من محاضرة يلقيها عالم متخصص عن ضرورة ألا يظلم الإنسان غيره بشجونه الخاصة وألا يظلم أى إنسان مر بظروف زوجك زوجته بالمقارنة بين الماضى والحاضر لأن للماضى سحره دائما حتى ولو كان مثقلا بالهموم ، ومشكلة الإنسان أنه بعد انتهاء التجربة ينسى غالبا الآلام التى صاحبتها ولا**

تبقى في ذاكرته سوى ذكرى الأيام الجميلة ، ثم «يحاكم» أيامه الحالية على هذا الأساس ويقسو عليها ولو كان منصفا لرأى للماضي جماله الذى لاتخلو منه أى مرحلة من العمر ولرأى أيضا للحاضر جماله الذى لايخلو منه أيضا .. وخطأ زوجك الأساسي يا سيدتي أنه لم يعط نفسه فترة نقاهة نفسية كافية يتخلص فيها من تأثير الماضي عليه .. وتتفتح خلالها مسامه من جديد لاستقبال ما تأتي به الحياة ، فكل تجربة أليمة يمر بها الإنسان يحتاج بعدها إلى فترة نقاهة كافية يستعيد خلالها اتزانه النفسى .. ويستطيع أن يجيد الحكم على المشاعر والاحاسيس ، وخطأ البعض أنهم يستطيلون هذه الفترة ويتصرفون في أعقاب التجارب المؤلمة بمنطق الرغبة في التعويض وهو منطق ظالم لا يخلو من أنانية لأن المرء يطلب به حل مشكلته هو دون التوقف كثيرا عند اعتبارات الآخرين وظروفهم .. بل وحقوقهم أيضا .

وقد تسرع زوجك بالارتباط بك قبل أن تهدأ أزمته وتتراجع صورة زوجته الراحلة من مخيلته إلى مكانها الطبيعي في صدره حيث ينبغي أن تُحفظ الذكريات الغالية بغير أن تُفسد علينا أجهزة استقبالنا للآخرين كما تسرع زوجك أيضا في إنهاء التجربة بغير أن يعطى نفسه الفرصة الكافية للمحاولة ومغالبة النفس وترويضها على تقبل الأوضاع الجديدة ولو فعل ذلك لاستطاع بعد فترة

قصيرة أن يتواءم معك وأن يضمد جراحه وآلامه وأن يسعد بحبك ورغبتك الصادقة في إسعاده وإسعاد طفليه .

لكنها آفة التعجل ياسيدتي .. التى خلق بها الإنسان عجولا .. لا يصبر على الألم .. ولا يصبر على الكفاح ويريد الحياة كما يشاؤها هو لا كما تقضى بها الأقدار ولا لوم عليك في كل ما جرى .. فلقد أردت السعادة لنفسك وله ولطفليه وتحملت آلام المقارنة .. والاغتراب النفسى في بيت زوجك المشغول بطيف زوجته الراحلة.. وصبرت على ما تكرهين في حين لم يصبر هو عليه فكان الإنفصال فلا تلومى نفسك على شيء ياسيدتي وثقى أن الأيام سوف تعلم زوجك بعد حين كم كان محبوبا من الأقدار حين وضعتك في طريقه لتساعديه على التخلص من آلامه فلم يقدر للسماء هديتها حق قدرها ولم يحفظ لك الود الذى تستحقينه.

أما أنت فانى أنصحك أن تتخلصي من آثار هذه التجربة خلال فترة مناسبة وأن تتفتحي للحياة من جديد ، وأنت شابة في مقتبل العمر .. وأمامك الحياة ممتدة ، ولأن الضربة التى لا تقتلنا تقوينا وتزيدنا قدرة على التعامل مع آلام الحياة ثم أيضا . لأننا لابد أن نؤمن دائما مع الشاعر التركى ناظم حكمت بان «أجمل أيام حياتنا لم تأت بعد» ولابد أن تأتى .. ولابد أن ننتظرها وسوف تأتى بالضرورة لأن أحق الناس بالسعادة هم من ظلمتهم الحياة ذات يوم .

سجن الأحزان

هذه رسالة من الرسائل التى أفضل عادة الرد على أصحابها برسائل شخصية تجيب على تساؤلاتهم وأفضل دائما عدم نشرها لكيلا تتسبب فى إيلام أحد.. أو إثارة مخاوف البعض ممن قد تتشابه ظروفهم بالصدفة مع ظروف كاتب أو كاتبة الرسالة . لكنى إضطررت لنشرها هذه المرة لأنها خالية من العنوان ولأنى لم أستطع أن أتجاهل تساؤل كاتبتها الذى لم أتلق تساؤلا مثله من سيدة من قبل ..

ثم أيضا لأنى أردت بحق أن أشارك كاتبتها مشاعرها الحزينة وأن أشير عليها بالرأى فيما طلبته منى قدر جهدى

تقول كلمات الرسالة :

أكتب إليك بعد عذاب طويل لأنى أريد أن يشاركنى أحد مشكلتى ولو بالانصات إليها .

أنا سيدة فى الثلاثين من عمرى أعطتنى الدنيا الكثير والكثير .. وعشت كل مرحلة من مراحل حياتى كما ينبغى أن تكون ، وحين بلغت الخامسة والعشرين زففت إلى أحد أقربائى وهو شاب تتمناه أية فتاة ، وبالرغم من أن زواجى به كان تقليديا ، إلا أنى بمرور الوقت بعد

الزواج تفجر فى قلبى حبه كأنه ينبوع كان مكتوما وينتظر من يفتحه ، فأصبح زوجى هو كل حياتى وأصبح حبه يجرى فى دمائى وأتنفسه مع الهواء الذى أستنشقه . وساد التفاهم بيننا فى كل شىء .

وزوجى رجل أعمال ناجح جدا والحمد لله .. وأنا خريجة جامعية لكننى لم أعمل لأتفرغ لرعاية مملكتى .. فلدى كل ما تتمناه سيدة فى مستوى المادى والاجتماعى، ولدى شقة مؤثثة بأغلى الأثاث .. وأهم من ذلك أن الحب يظللها من كل جانب ، وبعد عامين من الزواج أمضيناهما فى السعادة .. والذكريات الجميلة وقضاء الأجازات فى الخارج ، تحقق أكبر أحلامى وجاءت اللحظة التى قلت فيها لزوجى وأنا أحس مزيجا من الفرح والفخر والخجل «أنا حامل !..» ولا تتصور سعادتى بهذا الحمل .. فلقد طرت فرحا به ورحت أعد الأيام الباقية على وصول مولودى الأول ، وأتخيل نفسى وأنا أهدهده .. وأسهر عليه .. وأرعاه، وجاء الطفل جميلا كما تخيلته ، وفرحت به فرحة العمر وكذلك زوجى .. لكن ظلا ثقيلا كان يخيم عليه منذ أيامه الأولى، فالطفل مريض ولكن بأى مرض ؟ لا أحد يعرف! كل ما أعرفه أنى أمضيت الشهور الأولى بعد ولادته فى سهر وأرق وعذاب وبكاء وطواف على الأطباء بغير أن يشفى أحد غليلنا وذات صباح كئيب وطفلى عمره ٦ شهور بالضبط مات حلم حياتى وماتت معه أشياء كثيرة فى داخلى . والتف حولنا الأهل

والأصدقاء يخففون عنا آلامنا . وسمعت كلمات مواساة عديدة وقيل لنا أن هذا يحدث كثيرا وأن علينا أن ننسى ما جرى وأن نواصل حياتنا وننجب طفلا غيره ، وبعد شهور من هذه الصدمة تمالكت نفسى قليلا.. وعشت حياتى لكن شيئا من الحزن العميق كان قد تسلل إلى قلبى واستقر فيه ، وبعد شهور أخرى حملت من جديد وأنسانى الحمل بعض آلامى وتعلقت نفسى بالأمل مرة أخرى.. وحرصنا هذه المرة على أن نستشير كبار الأطباء فى كل خطوة ، وسار الحمل سيره الطبيعى إلى أن جاءت الولادة ووضعت طفلا ثانيا كان لدهشتى كأنه توءم لوليدى الآخر الذى انسحب من الحياة .. توءم له فى كل شىء فى شكله وملامحه وفى بكائه وسهره وعذابه .. ولا أعرف ماذا أقول لك أكثر من ذلك .. فلقد كان توءمه أيضا فى العمر وذبلت زهرته هو الآخر وبعد ١٨٠يوما بالضبط ياسيدى اكتوى قلبى مرة أخرى بنار فراقه.. كأن حياتيهما معا كانتا قصة واحدة تكررت مرتين بنفس التفاصيل .

وخيم الحزن على حياتى وأصبح بيتى الذى كان كالقصر.. صحراء موحشة ..

وأصبحت الأيام تمضى رمادية ثقيلة .. وأصبحت ليالٍ طويلة أمضى بعضها نائمة إلى جوار زوجى مغمضة العينين يقظى الحواس تتسلل الدموع ببطء من تحت أجفانى حتى أحس بزوجى ينهض .. فأنهض معه وأتبادل معه تحية الصباح .. ويبدأ يوم جديد من أيامى الحزينة .

لقد قال الأطباء كلاما نظريا كثيرا .. وقال البعض أن ماحدث ربما يكون ناتجا عن زواج الأقارب لكنهم لايجزمون بشىء .. ولايخففون من حيرتى .

فإذا كان مايقولون صحيحا .. فهل أنفصل عن زوجى الذى أحبه كل هذا الحب لكى أحقق رغبتى فى الأمومة ، وأنا أحب الأطفال حبا يملك علىَّ نفسى طوال حياتى حتى أنى أشعر مع كل طفل أقابله كأن بينى وبينه صلة ..

أم أرضى بقدرى وبنصيبى وأفترض أنى عقيم لا تنجب وأحرم نفسى إلى الأبد من سماع كلمة «ماما»..

إنى حائرة ومعذبة ومشغولة بالتفكير دائما فى المستقبل فأرشدنى إلى الصواب يا سيدى .؟

□ ولكاتبة هذه الرسالة الأليمة أقول : وماذنب زوجك المكلوم ياسيدتى لكى تضاعفى من آلامه بالتفكير فى الانفصال عنه جريا وراء أمل غير مضمون فى الإنجاب ؟ إننى أقدر تماما ما تعانين من آلام قد لا تسمح لك حاليا بالتفكير السليم لذلك فإنى أشاركك التفكير فى أمرك وأسألك .. لماذا أولا جزمت بما لم يجزم به الأطباء حتى الآن وهو أن قرابتكما هى السبب الوحيد لما جرى ؟ لقد طرح الأطباء احتمالا غير مؤكد فقط ، والاحتمال قد يصدق وقد لا يصدق .. ولا أحد يستطيع أن يجزم بثقة أنك سوف تحرمين من الإنجاب إلى الأبد إذا استمرت زيجتك هذه وكثيرا ما رأينا فى الحياة تجارب كثيرة مماثلة

ذبلت فيها الزهرة الأولى مبكرا وأحيانا الثانية ، ثم جادت الحياة بعد ذلك على الزوجين بباقة من الزهور نمت وأينعت وأسعدت القلوب الحزينة وأنستها آلامها القديمة. لا يا سيدتي إنني لا أؤيدك أبدا فى فكرة الإنفصال عن زوجك ولا أشجعك عليها.. وإنما أطالبك بأن تزدادي قربا منه وارتباطا به وبأن يكون كل منكما للآخر عزاءه وسلواه وفدية الحياة له عما حرمته منه ، فتجتازان معا هذه المحنة.. وتخرجان منها بإذن الله أكثر إنصهارا وارتباطا وحبا فالتجارب الأليمة أيضا ياسيدي يمكن أن تجمع بين القلوب ولا تفرق بينها ، والدنيا عموما «شجون تلتقي» كما يقولون «وحزين يتأسى بحزين» وفى حالتك هذه بالذات ينبغي أن يتأسى كل منكما بالآخر لا أن يفارقه ، أننا نرفض دائما هذه الفكرة من أساسها بالنسبة للرجل حين يفكر فى هدم عشه جريا وراء أمل الإنجاب ، ونذكره دائما بتجارب الحياة ودروسها التى كثيرا ما أخلفت الظنون وأورثت بعض من أقدموا على هذه المخاطرة الندم والحسرة بعد أن أضاعوا من أيديهم الحب الحقيقي فكيف نقبل بها بالنسبة للمرأة .. وبالنسبة لك أنت على وجه الخصوص؟ إنك تقولين لي أنك تتنفسين حب زوجك وأنه بالنسبة إليك الزوج والأب والأم والأخ .. فكيف تفقدين مثل هذا الزوج .. ومن أدراك أنك سوف تسعدين مع غيره .. أو أنك أصلا سوف

تنجبين من غيره .. ولم لا تجعلين منه الزوج والأب والأخ .. والإبن أيضا فتفرغي فيه أمومتك وحنانك؟ وأنت فى أقصى الاحتمالات قادرة إذا ما يئست تماما من الإنجاب على رعاية طفل محروم تسدين إليه يدا وتقدمين للحياة نفسا أنقذتها من الحرمان . إن الحياة تطالبنا دائما بأن نتواءم مع واقعنا فيها مهما كان أليما ، وأن نتقبل شاكرين ما تعطينا .. وأن نقبل راضين بما تحرمنا منه .. لأن هذا هو الطريق الوحيد لاحتمال الحياة ولقد نشرت فى نفس هذا المكان منذ أسبوعين رسالة لزوجة لديها عدة أبناء وسعيدة مع زوجها لكنها تعاني من بعض الحرمان ومن بعض تطلعاتها لحياة مادية أفضل .. ففكرت فى التخلي عن أحد أبنائها لمستثمر ثري محروم من الإنجاب مقابل مبلغ من المال ثم تراجعت فى النهاية ساخطة غاضبة ! ألا يعني ذلك أن الأمومة وحدها لم تحقق لها السعادة التى ترضاها وأن لكل إنسان من همه ما يشقيه .. إنني أقول لك ذلك يا سيدتي لكي تستردي نفسك وتخففي من أحزانك وتواصلي الحياة.

فلا تشغلي نفسك طويلا بأمر المستقبل .. فما يشقي الإنسان بشيء فى حياته بأكثر من إنشغاله الزائد بالمستقبل كأنه هو من يصنعه ويتحكم فيه وليس الله سبحانه وتعالى . إنني لست ضد الاهتمام بأمر المستقبل والاستعداد له .. لكني ضد المغالاة فى ذلك إلى حد أن يدفعنا إلى الانشغال المستمر به

فنخسر أيامنا التى نعيشها ونرتكب الأخطاء الفادحة تحسبا للمستقبل الذى لا يضمن أحد مجيئه .. فتقى بربك واتجهى إليه بمشاعرك وأعطى الآخرين من نفسك ومالك ما تتقربين به إليه ثم سليه من فضله يعطك ما يشاء ويمسح عنك آلامك إنه على كل شيء قدير .

التحدى ..!

غالبت نفسى كثيرا حتى تنازلت عن كبريائها «اللعين» وقبلتْ أن تقف موقف الشاكى من أحد وهى التى اعتادت أن يشكو إليها الناس وأن ينتظروا منها المشورة والعدل وسوف تعرف بعد قليل لماذا أجهدتنى نفسى لكى تقبل ذلك فأنا يا سيدى سيدة مرموقة بكل معنى الكلمة .. بدأت حياتى العملية منذ ٢٥ سنة عقب تخرجى فى الجامعة .. واختارت لى الأقدار طريقا مبشرا بالنجاح .. وأردت أن أساعد نفسى على ذلك فالتحقت بالدراسات العليا بكليتى لأحصل على الماجستير والدكتوراه ، وفى قسم الدراسات العليا التقيت بأستاذى المشرف على رسالتى للماجستير ، وتكرر اللقاء بيننا لأستشيره فى أمر رسالتى من حين إلى آخر وكان وقتها يقترب من الأربعين وكنت فى الخامسة والعشرين تقريبا .. ونشأ بيننا إعجاب متبادل ولم نلبث أن أقتنع كل منا بشخص الآخر .. واتفقنا بعد قليل على الزواج وفى اللحظة التى تصارحنا فيها .. تنحى أستاذى عن الإشراف على رسالتى وكلف زميلا آخر بالإشراف عليها لأنى أصبحت خطيبته ، وساعدنى مساعدات كبيرة فى رسالتى حتى ناقشتها وحصلت على الماجستير وتزوجنا .

وفى بيتى الصغير عرفت الحب لأول مرة فى حياتى.. بالرغم من أننا لم نتبادل عبارات الحب المألوفة خلال الخطبة فلقد وجدت نفسى أحبه من أعماق قلبى ووجدت نفسى أحترمه بقدر ما أحبه فلقد كان دائما رجلاً على خلق وله مثالياته التى يحرص عليها فى الحياة ، وكان كل يوم يمر على معه يكشف لى عن ميزة جديدة من مميزاته .. فهو أمين .. لا يكذب .. ولا يقبل الانحراف بكل أنواعه . وشجاع يقول كلمته فى الكلية ولا يبالى إن كانت ستكسبه خصوما أم أنصارا .

أما فى بيته فقد كان بحق زوجا مثاليا هادئا .. لا يعرف كيف ينطق بكلمة جارحة لأحد ومنظم جدا ويؤمن بتعاون الرجل مع المرأة فى كل شئون الحياة وقد أكسبته سنوات دراسته فى أوروبا نظرة عملية للحياة غير متوافرة لدى الكثيرين فكان مثلا يشاركنى العمل يوم الغسيل ويقف على الغسالة إلى جوارى ويشاركنى في كى القمصان والفساتين ويشترى لى الخضار والفاكهة من السوق وهو الأستاذ المرموق ويحرص على مشاركتى فى تنظيف البيت فى اليوم المخصص لذلك ، وكان يهتم جدا بنظافة أرضية الدور الذى نسكن فيه من العمارة .. ولولا أنى أمسكت به ذات مرة فى أول زواجى منه وأقسمت عليه ألا يفعل حرصا على مركزه .. لخرج من باب الشقة ليمسح أرضية الدور بالجردل والمسحة .. فعند هذا الحد قلت له أرجوك دع هذا الأمر للبواب لأن جيراننا سوف يستهجنون هذا التصرف واستجاب لمطلبى رغم عدم

اقتناعه به لأنه يعيش فى الواقع ويعرف الكثير عن الحياة وأصبح يدفع للبواب أجرا شهريا مقابل غسيل أرضية الدور مرة كل أسبوع .

وقد تعلمت منه الكثير والكثير .. وتعودت على نظام حياته الذى يحرص عليه بدقة منذ تعلم فى أوروبا فعلمنى العمل لفترة يوم أوربى طويل - وليست فترة اليوم المصرى المعروف الذى ينتهى عادة فى الثانية بعد الظهر.. وأن أنظم حياتى على ذلك .. وتعلمت هذا النظام وارتحت إليه فكنا نستيقظ فى السادسة صباحا .. ونجلس إلى مائدة الإفطار معا لمدة ساعة نتناول الطعام ونقرأ الصحف ونتبادل الأحاديث ثم نخرج إلى عملنا مبكرين هو إلى الجامعة وأنا إلى مكتبى بالهيئة التى أعمل بها وفى حقيبة كل منا سندوتشات للغداء نتناولها فى الثانية عشرة والنصف بالضبط ثم نبقى فى العمل حتى الرابعة والنصف ويمر بى بسيارته لنعود إلى البيت .. فنعد معا طعام العشاء ونتناوله فى السادسة مساء وبعدها يدخل إلى مكتبه وأنا معه فيقرأ وأدرس أنا للدكتوراه بجواره لمدة ساعتين ثم نشاهد التليفزيون لفترة وننام مبكرين .

أما يوم الخميس فإننا نخرج لنزور الأقارب والأصدقاء أو نسهر فى مسرح أو سينما وفى يوم الجمعة لابد من الخروج طول النهار إلى أى مكان ونعود منتعشين وقد جددنا نشاطنا لنستعد لأسبوع من العمل الشاق !

هكذا كان نظامه .. ولا تتصور كم أفادنى ذلك النظام

في عملي ـ فقد كنت الموظفة الوحيدة التي تبقى بالعمل كل يوم من ٨ صباحا إلى ٤,٣٠ مساء رغم انصراف كل الموظفين في الثانية وكثيرا ما ضقت بالفراغ والوحدة في ساعات بعد الظهر لكنه علمني أن أستفيد منها في دراسة عملي وإعداد التقارير واقتراح المشروعات وفعلت ذلك واكتسبت سمعة حسنة جدا لدى رؤسائي بسبب ذلك وأصبحوا يكلفونني بالأعمال التي تتطلب دراسة وتفكيرا وترقيت سريعا في عملي فأصبحت رئيسة لقسم ثم مديرة إدارة وبعد أن كنت أجلس في غرفة بها ٤ مكاتب أصبحت لي غرفة صغيرة خاصة بي وساع يرتب أوراقي وملفاتي .

وكان زوجي يرقبني بإعجاب ويشجعني على بذل المزيد من الجهد في العمل لأتقدم أكثر .. ويساعدني في اختيار الملابس المحتشمة اللائقة بي .. بل أصبح يساعدني في عملي حين أعجز عن إبداء الرأي في مشكلة فأستشيره ويشير علي بالرأي الصائب وبعد خمس سنوات من زواجنا رأى أن الوقت ملائم للإنجاب.. فأنجبنا إبننا الوحيد وبطريقته العملية طلب مني التفرغ من العمل لتربيته لمدة عامين بأجازة بدون مرتب، وبعد عامين بالضبط طلب مني العودة للعمل وأحضرنا مربية للطفل واخترناها بعناية لكي تمضي فترة الصباح معه في بيت أم زوجي المسنة حتى نمر بها عند العودة من العمل ونصطحب الطفل للبيت واكتسبت حياتنا طعما جديدا بعد مجيء الطفل .. لكن نظامها لم يتغير وبعد عامين آخرين ألحقناه بحضانة أطفال راقية

واستغنينا عن المربية ومضت حياتنا هادئة سعيدة ورغم أننا لم نكن من الأثرياء فلقد عشنا حياة مضيئة بكل معنى الكلمة في حدود إمكاناتنا .. فقد كانت لزوجي قطعة أرض صغيرة مزروعة بالفواكه في بلده يؤجرها منه بعض أقاربه فكان إيرادها مع مرتبه ودخله من كتبه الجامعية التي كان يتنازل عن نصف مكافأة تأليفها مقابل تخفيض أسعارها للطلبة توفر لنا حياة معقولة بلا إسراف .. أما مرتبي فلقد كان يصر على أن أحتفظ به لنفسي ويقول لي ضاحكا : أنا متحرر في تفكيري في كل شيء إلا في هذه النقطة فأنا شرقي جدا فيها ! وهكذا كنت أنفق مرتبي على متطلباتي الشخصية وعلى شراء الهدايا له في المناسبات .. وكان هو يبادلني الهدايا وواصلت نجاحي في عملي وترقيت مديرا عاما وزادت أعبائي ولم أستطع مواصلة الدراسة للدكتوراه فتوقفت عنها وأسف هو لذلك كثيرا لكنه لم يعترض وواصل هو نجاحه في عمله حتى أصبح رئيسا للقسم ثم وكيلا لكليته ورفض أكثر من مرة قبول العمل في الخارج رغم مغرياته وفي هذه الفترة توفيت والدته رحمها الله .. وأصبحت شقتها خالية فنقل إليها بعض كتبه وأرشيفه.. وأصبح يمضي فيها أحيانا بعض الوقت كلما احتاج إلى أرشيفه .

وفجأة قفزت أنا قفزة كبيرة في عملي حين أحيل رئيس مؤسستنا للمعاش ورقي وكيل الهيئة رئيسا لها فاختارني وكيلا للهيئة بدلا منه وقوبل اختياري لهذا المنصب بمعارضة صامتة واحتجاج داخلي من كثير من

المديرين بهيئتنا .. وتألمت لذلك وشكوت لزوجى فقال لى: إجعلى من هذا الاحتجاج تحديا يدفعك للعمل والإجادة وإقناع المعارضين بأنك الأقدر فعلا على شغل هذا المنصب. وبالفعل تفانيت فى العمل وأصبحت أعمل صباحا ومساء ويوم الأجازة وأتنازل عن أجازتى السنوية التى كان زوجى يحرص حرصا شديدا على قضائها معى فى المصيف .. ولأول مرة فى حياتى افترقنا عدة أسابيع حين جاء الصيف فانتقل إلى المصيف فى أغسطس واستأجر الشقة المعتادة هناك .. واصطحب إبنى معه وبقيت وحدى فى القاهرة أذهب إليه مساء كل أربعاء بسيارة الهيئة وأعود مساء الجمعة. ولم يشك زوجى من شىء .. بل كان سعيدا ومنطقيا كعادته .

واستمررت فى عملى كوكيلة للمؤسسة وبذلت أقصى طاقتى فى العمل مع اقتراب خروج رئيس المؤسسة إلى المعاش بعد عامين وبعد أن أصبحت المرشحة الأولى لشغل منصبه .. وغرقت فى العمل فعلا خلال السنوات الأخيرة وأصبحت أيامى تنقضى فى اجتماعات ولجان وسفر لتفقد الفروع وحضور الاحتفالات المختلفة وكلما تصورت أننى أنجزت شيئا اكتشفت أن هناك جبالا من الأعمال تنتظرنى .. ولم ينفعنى اليوم الأوروبى فى ذلك.. فأصبحت أذهب للعمل فى الثامنة وأعود فى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر .. فأتناول طعام الغداء واستريح ساعة ثم أعود للعمل فى السادسة والنصف أو السابعة مساءً وأبقى فيه حتى

الحادية عشرة أو الثانية عشرة وأحيانا للواحدة صباحا.. وهكذا كل الأيام بما فيها يوم الجمعة أحيانا .. وابتلعنى العمل بغير أن أحس واكتشفت أن أياما كثيرة تمر بدون أن أرى زوجى وأتحدث إليه فهو يكون خارج البيت حين أعود ظهرا .. ويكون نائما حين أعود ليلا وأيام الجمع التى يحرص على الخروج فيها أصبحت لا أرافقه معظم المرات فيها لأنى أصل إلى نهاية الأسبوع منهكة القوى فأجد نفسى نائمة معظم ساعات نهار الجمعة «كالفسيخة» من شدة التعب .. أفطر وأنام .. وأتغدى وأنام وكثيرا ما صحوت بعد العصر فأجده عائدا مع ابنى من النادى أما أعمال البيت فلم أعد أضع يدى فيها بكل أسف لأنى متعبة وقد خصصت نصف مرتبى كأجر لمدبرة بيت تأتى فى الثامنة صباحا وتذهب فى الخامسة لأعوض هذا الإهمال منى لكنى كنت سعيدة والمح الرضا فى عين زوجى عن نجاحى .. وكثيرا ما قال لى أنه لابد أن تكونى رئيسة للمؤسسة وسوف تنجحين فى ذلك إن شاء الله .

وذات يوم كنت فى مكتبى فدخلت علىّ مديرة مكتبى بلا أوراق أو ملفات فى يدها فاستغربت ذلك وتوقعت أن تطلب منى أجازة واستعددت للرفض لكنها اقتربت وجلست ثم قالت لى أنها تريد أن تتحدث معى فى أمر خاص ثم قالت لى خبرا نزل فوق رأسى كالمطرقة! .. فقد قالت لى أن زوجى قد تزوج من شهور من زميلة له بالكلية مطلقة فى الأربعين من عمرها وأنها عرفت ذلك منذ أسبوع من زوج شقيقتها الذى يعمل موظفا بنفس

الكلية وأن الخبر معروف في الكلية منذ شهور لأنهما لا يخفيانه وأن «الأستاذة» تقيم مع أمها لأنها لم تنجب وأن زوجي يعد شقة أمه الراحلة لتكون عش الزوجية!

وأسرعت أضع النظارة على عيني لأخفي انفعالاتي وسألتها : هل أنت متأكدة من ذلك؟ فقالت : نعم! ولأول مرة منذ سنوات طلبت سائق السيارة ونزلت من مكتبي قبل مواعيد العمل وأسرعت عائدة إلى البيت .. ووجدت زوجي يجلس ساكنا على فوتيل يقرأ كتابا ويدخن البايب في هدوء !

ولم تبد عليه أي دهشة لعودتي المفاجئة .. وجلست بجواره وسألته عن الموضوع فإذا به يقول لي بهدوء عجيب أن الخبر صحيح !

وصرخت فيه لأول مرة في حياتي : تزوجت ؟ فنظر إليّ مندهشا من إرتفاع صوتي وقال : نعم ! قلت : لماذا..؟ قال بنفس الهدوء لأنه لابد لكل رجل من زوجة ! فصرخت مرة أخرى وأنا ماذا أكون ؟ فقال أنت وكيلة هيئة مرموقة مشغولة بعملها ولجانها واجتماعاتها وطموحاتها .. ولم تعودي زوجة منذ أكثر من ٥ سنوات لقد صبرت كثيرا وتحملت كثيرا وانتظرت أن تفيقي إلى نفسك وأن تؤدي إليّ حقوقي كزوج ولكنك لم تتنبهي إلى ذلك .. هل تذكرين متى كانت آخر مرة جلسنا فيها جلسة هادئة لمدة ساعتين معا ! ليس قبل عام على الأقل! هل تذكرين آخر مرة تناولنا فيها طعام العشاء أو الغداء معا ؟ ليس قبل ١٠ شهور .. ! هل تذكرين آخر مرة أمضينا فيها أجازة لمدة ٣ أسابيع معا في المصيف أو في القاهرة؟ .. ليس قبل عامين !

ماذا كنت تنتظرين مني .. إنك تعرفين استقامتي، وتعرفين أني لا أقبل أن أفعل الخطأ .. لذلك كان لابد لي أن أتزوج وقد تزوجت !

ووجدت نفسي عاجزة عن الرد لكني قلت له : وابنك؟ فقال: إبني أصبح شابا في السابعة عشرة يفهم الدنيا .. وسوف يعذرني إذا شرحت له الأمر لكني لن أفعل ذلك إلا إذا أخبرته أنت بذلك والأفضل أن يعرف الأمر في الوقت المناسب ! وتجمد لساني في حلقي .. وبعد دقائق مرت كالشهور قلت له : وما العمل ؟ قال : كما تشائين .. إذا أردت استمرار العلاقة الزوجية فأنا على استعداد لذلك وإذا أردت الانفصال فأنا أيضا على استعداد لذلك ولن يتغير أي شيء في حياتك لأني سأترك لك الشقة بما فيها وسآخذ كتبي وأوراقي فقط لكنك إذا سألتني عن رأيي فسوف أنصحك بقبول الأمر الواقع وأن تستمر علاقتنا الزوجية حفاظا على مظهرنا الاجتماعي وعلى مركزنا ولن تفتقدي شيئا مني .. لأنك فقدتني بالفعل منذ سنوات !

ونهضت من أمامه محطمة ودخلت غرفة نومي وانهمرت في بكاء عنيف ولم أشعر إلا بزوجي يقول لي: السيارة حضرت ! فقلت له : إنني لن أذهب للعمل هذا اليوم !

وأمضيت اليوم في سريري بلا طعام وذهبت إلى العمل في اليوم التالي وأنا شبه مريضة ، ومرت أيامي ثقيلة أفكر في حالي وفي العرض الذي عرضه على زوجي .. وبعد أسبوعين من التفكير قررت ألا أطلب منه

الطلاق وأن أستمر معه حفاظا على كرامة الأسرة وحرصا على مشاعر إبني وتظاهرت بالقوة والاستهانة بالأمر وازددت استغراقا فى العمل لأنسى مشكلتى لكنى كلما سرحت تذكرت الأيام السعيدة التى عشتها معه .. وتذكرته وهو يعلمنى حقائق الحياة ثم وهو يشجعنى على العمل والتقدم فيه ونزهاتنا البريئة فى الأيام الخالية .. ثم أتذكر حالى وما وصلت إليه من وحدة وافتقاد للزوج والحبيب والأستاذ فأنهار وأبكى وفى أحيان أخرى أتذكر أن لى «ضرة» تسعد بزوجى ويسعد بها فتشب النار فى جسمى .. وأفقد سيطرتى على نفسى وأشد شعرى من الغيظ فهل رأيت وكيلة مؤسسة ترأس أكثر من مائة موظف ولها ضرة ؟

وهل أخطأت حين قبلت الاستمرار معه ولم أطلب الطلاق ؟ لقد مرّ على قرارى هذا ستة شهور إلى الآن لم أهنأ فيها بنوم ولا براحة ولولا مشاغلى وحياتى الاجتماعية فى العمل لجننت . وزوجى يحرص على عدم جرح مشاعرى ولكنى أحس أنه بعيد عنى وأن بينى وبينه حواجز عالية ، فهل ترى أننى أخطأت فى قبول هذا الوضع ؟ وكيف يشجعنى على التفانى فى العمل ثم يحاسبنى على العمل بنصيحته وعلى النجاح الذى حققته بفضله ؟ وماذا يريد منى أكثر مما قدمت وسنواتنا معا مرت كلها بلا مشاكل ولا أزمات ؟

□ **ولكاتبة هذه الرسالة أقول : يريد الرجل من زوجته يا سيدتى أن تكون « زوجته » أولا ثم أى شىء آخر بعد ذلك ! لقد علمك حقائق الحياة كما**

تقولين وشجعك على العمل والنجاح لكنك تجاوزت باعترافك الخيط الرفيع بين الطموح المشروع للزوجة فى عملها وبين دورها كزوجة تشارك زوجها حياته وأفكاره وأوقاته .. فاختلطت عليك الأوراق .. وانفصلت معنويا عن زوجك منذ فترة طويلة بغير أن تشعرى وغابت عنك حقائق كثيرة .. فغاب عنك أن زوجك ينتظرك .. وأنه ملّ الانتظار وأنه قد تجاوز بعد صبر طويل الاحتجاج الصامت إلى الاحتجاج العلنى .. فتزوج !

لقد بحث عنك زوجك يا سيدتى طويلا ولم يجدك.. ولأنه رجل جاد فلقد رأى أنه بلا زوجة ويحتاج إلى زوجة فتزوج .. فإن كنت ألومه على شىء فعلى أنه يكن كالعهد به صريحا معك فى هذا الأمر .. ولم ينبهك فى الوقت المناسب إلى أنه لم يعد يحتمل انشغالك عنه كما لا ألومه أيضا إلا على أنه لم يحاول جديا استعادتك إليه من عملك ومشاغلك .. ولم ينذرك مرة ومرات إلى خطورة استمرار هذا الحال قبل أن يقدم على خطوته وعلى أنه لم يبلغك بنواياه قبل أن يقدم على الزواج ويخيرك بين الاستمرار معه وبين الانفصال عنه ولو فعل كل ذلك لما كان ملوما فى شىء !

فأنت فعلا قد انصرفت عنه إلى طموحك وإلى التحدى الذى قبلته فى عملك واجهدت نفسك فى مواجهته . وليس فى إهتمام الإنسان بعمله وفى تفانيه فيه ما يعيبه .. بل هو من مزاياه بكل تأكيد

ولكن بشرط ألا يكن ذلك على حساب واجباته الأساسية الأخرى .. وأى واجب أحق بالأداء من واجب الزوجة تجاه زوجها وابنها وأسرتها ؟ وأى معنى للزواج حين يفتقد الزوج زوجته وهى معه تحت سقف واحد ، وحين تمر الشهور بل والأعوام وهما لا يلتقيان ولا يتناجيان ولا يتشاركان فى شئون الحياة ولا يبدد كل منهما وحشة الآخر ؟

إن التوفيق بين الطموح الشخصى والتفانى فى العمل، وبين الحياة الخاصة أمر ليس مستحيلا لكن بعيدى النظر وحدهم هم الذين يحرصون عليه لأنهم يعرفون جيدا أنه لا قيمة للطموح ولا للمناصب ولا للمال .. ولا للوجاهة الاجتماعية ولا لأى شىء والإنسان تعيس فى حياته الخاصة .. ووحيد داخليا رغم زحام الآخرين حوله .

ولقد غاب عنك هذا الدرس يا سيدتى فى السنوات الأخيرة من حياتك فدفعت ثمنه غاليا من سعادتك الشخصية لكنك لم تخسرى المعركة نهائيا على أية حال .. فأنت شخصية صلبة ذات إرادة قوية ولقد قبلت التحدى فى حياتك العملية وواجهته باقتدار فلم لاَ تقبلينه أيضا فى حياتك الخاصة وتواجهينه بنفس الإصرار ؟ إنك تستطيعين استعادة زوجك الذى تربطك به علاقة العمر والروابط العديدة .. لو تذكرت فقط أنك فى بيتك زوجة وأما وامرأة أولا وقبل كل شىء ولست وكيلة مؤسسة ولا وكيلة وزارة لأن الرجل ياسيدتى لا يرى فارقا بالمرة بين

وكيلة الوزارة وبين وكيلة المدرسة الابتدائية فى علاقته الخاصة بها .. وهو كزوج يرى فى شريكة حياته زوجة وامرأة وأما قبل أن تكون أى شىء آخر، أما وظائفها وألقابها فلتكن ما تكون خارج حدود علاقته بها وخارج حدود بيته وعالمهما الصغير .

فلم لا تراجعين نفسك .. وتصلحين من شأنك .. وتقتربين من زوجك ليستعيد فيك الزوجة الغائبة .. والحبيبة الأولى ؟ إننى أتصور أن علاقتكما أعمق من هذه الأزمة العابرة التى يمكن أن تنتهى بعودة زوجك كاملا إليك .. وأتصور أنكما سوف تعبران هذه المحنة الطارئة بقليل من الانصاف منك لنفسك أولا قبل زوجك.. وبقليل من المهارة والإرادة القوية التى يستفزها التحدى فتنهض لمواجهته وتنجح دائما فى تحقيق ما تريد ، فلم لا تخوضين هذه المعركة الجديدة يا سيدتى؟

نظـــــرة إشـــفاق !

أنا يا سيـدى شاب في الثـلاثينات من عمـرى عشت حـياة كـريمة فى ظل والدىَّ حـتى رحـلا عن دنيـانا ثم تغيرت حياتى بعد رحيلهـما فقد وجدت نفسى بلا رقيب ولدى مـا يكفـينى من مـعاش والدى ومن نصـيـبى فى ميراثه وهو قطعـة أرض زراعية صغيـرة فاندفعت فى طريق الأهواء وطالت مرحلة دراستى الجامـعية ورسبت أكثر من مـرة وحين نجحت بجهد فى اجتـيازها كنت قد أتيت على كل ما تركه لى والدى .

وفى هذه المرحلة الحرجة من حياتى تعرفت على فتاة من أسرة مـتوسطة مـثل أسرتى ، عطفت على وتـقربت منى بكل الوسـائل وساندتنى فـانجذبت إلـيهـا وقررت الزواج منهـا ، وعندمـا علم بذلك إخـوتى عارضـوا ذلك بشدة لسـببين : أنها غيـر جميلة أو بمعنى أصح دميـمة والثانى أنها غـير متعلمة إذ لم تـنجح فى الحصول على الشـهـادة المتوسطة التى كانـت تدرس للحصول عليـها ، ولم أعرف هذه الحـقيقـة إلا قبل الزواج بأيام ، وبالرغم من ذلك فلقـد صممت على الزواج منهـا رغم معـارضة إخوتى وعشت معـها فى شقتها خاصـة وأن أمها كانت قد توفيت قـبل زواجنا بأسابيع وأمضيت فتـرة التجنيد

وأنا عريس .. وكنت أخرج فى أجازاتى لأقـيم معها ولم أتقدم للقـوى العاملة طالبا عملا لأنـى كنت قد قررت أن أسافر للخارج للعمل هـناك ، وبالفعل سافرت إلى إحدى الدول العـربيـة منذ ٩ سنوات ومـازلت هناك إلى الآن ، وقـد أنجبنا ولدين نشـأتهمـا منذ الصـغر على التـدين والتـقوى وزرعت الفـضيلة فى نفـسيـهما ، وتحـسنت علاقة أخوتى بزوجـتى عقب الزواج بقليل بفضل إتزانها وشهامتها وحسن معاملتها للناس .

لكنى ياسيـدى ومع تقدم العـمر وبالذات بعد تيـسر ظروفى المادية بدأت أعـانى من مـتاعب نفـسـية لسـبب غريب سـأقوله لك بصراحة هو دمامة زوجتى ، فأنا على قـدر من الوسـامـة وحسن الخلقـة وهى عـاطلة عن الجمال.. بل ودمـيمة حتى لقد نفَر مـعظم أصدقائى من زيارتى مع زوجـاتهم بعـد «رؤية» زوجـتى مما آثار خـجلى وضيـقى وأصبـحت أقـوم بزياراتى للأصدقـاء والزمـلاء بمفـردى وبدونهـا لكـيلا أعـانى من نظرات الإشفاق التى أراها فى عيـونهم حين يرونها معى ، وقد أصبحت أكره نظرات الإشفاق التى تُوجه إلىَّ حين أسير معها ونحن نتسـوق طلباتنا من السوق أو عند خروجنا معا لـلنزهة أو عند تمضية الأجازات السنوية فـى مصر كما أنى أصبحت أعـانى من شىء آخر سـأقوله لك أيضـا بصراحة لأنى لا أستطيع أن أستـشير أحدا فى مشكلتى هذه حـتى إخوتى ، وهو أننى أصـبحت يا سـيدى كلمـا رأيت امرأة متوسطة الجمـال أو جميلـة أتمنى لو كانت زوجتى !

أو أتمنى لو كانت زوجتى جميلة مثلها ، وقد أصبحت أفكر فى الزواج مرة أخرى لكن ما يخيفنى هو الأولاد لأنى أرى فى الحياة معاناة الأولاد عند زواج الأب بأخرى غير أمهم ، وما يخيفنى أيضا هو رفض المجتمع لصورة زوج الاثنتين علما بأنى لا أريد التضحية بأولادى وفى نفس الوقت لا أطيق الحياة بغير زواج .

وهناك سبب ثالث لمخاوفى هو أننى أريد أن أتزوج زوجة بها كل المواصفات التى تفتقدها زوجتى .. كالجمال الباهر والتعليم الجامعى ، أننى مازلت أخشى أن أستشير إخوتى فى ذلك لأنى أعرف الرد مقدما وهو أن هذا الزواج اختيارى وعلىّ أن أتحمل نتائجه .. لهذا ألجأ إليك على غير معرفة فهل تستطيع أن تساعدنى فى تحقيق هذه الرغبة التى تلح على وأن تعتبرها مشكلة من مشاكل القراء ؟

□ ولكاتب هذه الرسالة أقول : سأروى لك ياصديقى قصة قد تبدو بعيدة عن الموضوع لكن رسالتك هذه قد ذكرتنى بها ، فذات يوم اتصلت بى أستاذة جامعية وروت لى قصة مغلفة بالمشاعر الإنسانية عن فقدها لكلبها الصغير الذى غادر الشقة بلا عودة خلال غيابها فى العمل ، وكيف أنها تفتقد هذا الكلب وقد نشرت إعلانا بالصحف تعد فيه من يعيده إليها بمكافأة مالية فلم يستجب للإعلان أحد ، ثم اختتمت حديثها الطويل بأن طلبت منى أن أكتب هذه القصة فى بريد الجمعة مضيفا إليها من

اللمسات الدرامية ما يثير مشاعر القراء فينطلقون فى الشوارع بحثا عن الكلب الضائع ثم أجلس فى مكتبى لاستقبال كل من عثر على كلب ضال وظنه الكلب المفقود مسلحا بمواصفات الكلب الضائع فأتفحص الكلاب المضبوطة بعناية قائلا : شكرا ليس هذا .. شكرا ليس هذا ، إلى أن أجد الكلب المطلوب فأشكر حامله وأصرفه .. بغير أن أفصح عن شخصية صاحبته حرصا على « مكانتها الجامعية » ثم أتصل بها وأستدعيها فتحضر لتسلمه والحمد لله أنها لم تكلفنى بتوصيله إليها أيضا ، فاستمعت إلى لهجتها المتعجرفة صامتا ثم انفجرت فيها قائلا لها أن لدى من مشاكل القراء الجادة ما تضيق به ساعات يومى وأنى أفضل أن أعطى هذا الوقت وهذا الجهد لمريض يبحث عن العلاج والدواء أو لعاطل محتاج يبحث عن عمل أو لطالب يحتاج إلى ثمن كتبه الجامعية ، وأنهيت المكالمة حانقا فما كان من الأستاذة الجامعية إلا أن كتبت للأهرام رسالة تقول فيها أن بريد الأهرام لا يهتم بمشاكل المواطنين وتطالب بعزل المشرف عليه !

هل فهمت يا صديقى ما أريد أن أقوله لك من هذه القصة ؟ إننى أريد أن أقول لك شيئين .. الأول أنه لا وقت لدى للبحث عن «الكلاب المفقودة» لذلك فإنى لست على استعداد لأن أضيع جهدى ووقتى فى المساهمة فى حل مشكلة هامشية صنعها البطر

«وتيسر الأحوال المادية بعد الجفاف» وقلة الوفاء كمشكلتك هذه !

والثاني : إن من يعاشر حيوانا أليفا قد يعز عليه فقده، فلماذا لا يعز على الإنسان فقد عشيرة من بني الإنسان ، لأن ظروفه المالية قد تغيرت إلى الأحسن .. وتلفت حوله يبحث عما يرضي أهواءه العابرة ؟ إنك تقول لي أنك ترى نظرات الإشفاق في عيون أصدقائك من دمامة زوجتك ووسامة «سيادتك» .. وأنا أسألك لماذا لم تكتشف هذه النظرات إلا الآن فقط بعد أن استقرت أحوالك المادية ، ولماذا لم ترها في عيون الآخرين وأنت ضائع بلا عمل وبلا مال ، أو حين تزوجتك وآوتك وكفلتك في بيتها وحين «ساندتك» في بداية حياتك .

لقد كنت على استعداد لأن أقدر آلامك لو كانت زوجتك متعبة وحولت حياتك إلى جحيم بسوء عشرتها .. لكنك تعترف لها بالشهامة والإتزان وحسن معاملة الآخرين وأنت أولهم بالطبع ومثل هذه الزوجة الوفية المعطاءة لا يفرط الإنسان فيها ياصديقي ولو كانت دميمة ، ومأأظنها كذلك لكنك غالبا تبالغ في الأمر لتبرر لنفسك حنينها القديم إلى « الأهواء » فالجمال يا صديقي مسألة نسبية ، ولا تخلو امرأة من لمسة جمال مهما كانت دمامتها والجمال الباهر الذى تبحث عنه أو الشهادة الجامعية لم يكونا وحدهما أبدا طريقا للسعادة بل

لعل من شقوا بجمال زوجاتهم أضعاف أضعاف من شقوا بدمامة زوجاتهم ، فالمهم حسن المعاشرة والوفاء فراجع نفسك ياصديقي واقنع بما أعطتك الدنيا فلقد أعطتك الكثير وأخشى أن تطالبها بالمزيد فتعطيك أيضا .. ثم تخسر أضعاف ما أخذت فتخسر استقرار حياتك .. وتعرض أبناءك لمحنة لا مبرر لها.. وتخسر راحة البال وتتمزق بين أسرتين وحياتين وتغلق أسر عديدة أبوابها في وجهك.. لأنها لا ترحب بزوج الاثنتين خشية أن تنتقل العدوى إلى الأزواج.. وساعتها لن ترى في عيون الآخرين نظرة الإشفاق التي تشكو منها .. وإنما سترى نظرات الانتقاد والضيق وعدم الترحيب .. فاختر لنفسك ما تريد فأنت الغارم وحدك في كل الأحوال لكني لا أستطيع أن أشاركك هذه الجريمة بأن أقدم لك العون فيها لأني غير مقتنع بجدية الأسباب .. والسلام .

الخاتم الماسى ..

أنا سيدة فى السابعة والثلاثين من عمرى .. نشأت فى أسرة طيبة متماسكة وتخرجت فى كلية الهندسة منذ ١٥ عاما وعملت بوظيفة حكومية .. وفى المكتب الذى عملت به فور تخرجى التقيت به لأول مرة .. زميل لى يعمل مهندسا .. اكتشف كل منا فى الآخر رفيق حياته من اللحظة الأولى فتقاربنا وتحاببنا واتفقنا على الزواج وتقدم لخطبتى وتحمست له وأقنعت أبى به لأنه تردد قليلا فى قبوله ليس لأنه من أسرة فقيرة.. ولكن لأن أسرته مفككة ولاتربطها علاقات سوية كأسرتنا .. ومضينا نبنى عشنا طوبة طوبة .. فبعت شبكتى فى اليوم التالى لحفل الخطبة وأعطيته ثمنها .. وأعطيته كل ما ادخرته من عملى خلال السنتين اللتين عملت فيهما ليدفع خلو شقة من ٣ غرف وصالة وأقنعت أبى بألا يطالب خطيبى بمهر وبأن يترك لنا تأثيث شقتنا بمعرفتنا.. وعقدنا قراننا لكى أستطيع أن أذهب إلى الشقة الجديدة معه بلا شبهة ومضينا نبنى عش أحلامنا بأيدينا .. فكنا نشترى الزيت ومواد الطلاء والخامات وفرش الطلاء .. ثم نذهب إلى شقتنا فى الظهر ونظل نعمل فيها حتى الليل .. وخاصة أنا لأن لى صبرا على الأعمال اليدوية ولى موهبة فيها .. فقمت بطلاء جدران

شقتى بنفسى .. وقمت بدهان قطع الموبيليا البسيطة التى اشتريناها بنفسى وعدلت تركيبات الكهرباء والسباكة. ورسمت اللوحات الزيتية التى زينا بها جدران الشقة .. بل ونقلت ماكينة الخياطة إلى الشقة الجديدة لأصنع الستائر لها .. وانتقلنا إلى عشنا السعيد بعد كفاح مرير وبدأنا حياة سعيدة نتشارك فيها فى كل شىء .. نذهب معا للعمل ونعود معا .. ونقضى نهاية الأسبوع فى بيت أسرتنا أو أسرته أو فى رحلة قصيرة بأرخص التكاليف .. وقد أقنعته بعد فترة بأن يقبل ارتداء قمصان أصنعها له بيدى فقبل بعد أن رآها لا تختلف عن قمصان المحلات التجارية الغالية فى شىء.. وأصبحت لا أسمح لكهربائى أو سباك أو نجار بدخول شقتى لأنى أقوم بكل شىء إلى جانب الطهى ونظافة البيت .. ورزقنا الله بثلاثة أبناء خلال السنوات الخمس الأولى من زواجنا أشاعوا البهجة فى حياتنا لكن مطالب الحياة بدأت تصبح كثيرة بعد مجىء الأولاد .. وحاول هو أن يعوض نقص الدخل بالعمل فى مكتب هندسى بعد الظهر .. لكنه كان يعمل شهورا .. ولا يجد العمل شهورا أخرى .. وحاولت أنا أن أساهم فى المشكلة برسم اللوحات الزيتية وبيعها للمحلات التى تبيع الصور ، لكن عائدها كان ضئيلا فالمحل يشترى اللوحة التى أقضى يومين أو ثلاثة فى رسمها بعشرة أو خمسة عشر جنيها ويعرضها للبيع بـ ٥٠ و ٦٠ جنيها ، لكن الحياة كانت رغم ذلك سعيدة ولذيذة .. وكنا نفرح بثلاثين جنيها أحصل عليها من المحل كأنها مليون

جنيه.. إلى أن بدأ زوجى يتململ ويتطلع للسفر إلى الخارج كزملائه الذين سافروا وعادوا فى الأجازات ينفقون ببذخ ويركبون السيارات ، ووافقته على رغبته بشرط ألا نفترق هنا أو هناك ، وفعلا حصل على فرصة عمل وسافرنا معا وعشنا حياة سعيدة عرفنا فيها الراحة والوفرة والاطمئنان للمستقبل وزادت سعادتنا.. لكن الأيام السعيدة تجرى سريعا كما تعرف .. لذلك فقد واجهنا مشكلة بعد ٤ سنوات وهى إصرار جهة العمل التى نعمل بها على عودتنا وإلا فصلتنا لانتهاء الأجازة وناقشنا المشكلة معا ـ فقلت له : لقد أعطانا الله ما لم نكن نحلم به .. وعندنا الآن رصيد فى البنك يحمى مستقبل الأبناء ونستطيع أن نعيش على عائده مع مرتبينا حياة طيبة .. لذلك فإنى أرى ضرورة عودتنا لكيلا نفقد وظائفنا فى بلادنا .. ففاجأنى برغبته في الاستمرار فى الخارج حتى لو فقد وظيفته وترك لى حرية اتخاذ القرار بالنسبة لى .. ففكرت طويلا وهدانى الله إلى أن أختار العودة لكى أحافظ على وظيفتى وألحق أبنائى بالمدارس فى مصر رغم آلام الفراق وطالبته بأن يقسم لى على ألا يغيب عنى أكثر من ٦ شهور .. فإما أن يجيء فى أجازة طويلة أو أسافر أنا إليه .. وتعاهدنا على ذلك ، وعدت وبدأت مرحلة جديدة من حياتى .. أرعى فيها أولادى .. وأتعلق بحبال الأمل فى عودته .. وأنتظر خطاباته .. وأكتب له كل اسبوع خطابا وأنتظر بجوار التليفون كل أسبوع ، وحين تأتى الأجازة أسافر إليه على جناح الشوق ونعيش شهور

الصيف فى حلم لا ينتهى وبعد عامين آخرين طالبته بالعودة لأن هناك فرصة للعودة إلى نفس وظيفته رغم استقالته فرفض وقال لى أنه لم يعد يصلح لمثل هذه الوظائف الصغيرة .. لكن الوحدة بدأت تثقل على .. وبدأت أسأل نفسى لماذا نشقى من أجل النقود إذا كانت لا تسعدنا ؟ فأنا وحيدة مع أبنائى وهو وحيد معظم شهور السنة هناك .. ثم ما هذه النغمة الجديدة التى بدأت أسمعها فى حديثه من نوع : الفلوس هى كل شيء.. وأن ما جمعناه هو «ملاليم» حتى الآن !

وأن شقتنا التى رسمنا كل قطعة منها لم تعد تصلح لنا .. وأننا نحتاج إلى شقة أوسع فى حى أرقى ! يا إلهى.. إن معنى ذلك أن نحيا العمر كله نجرى وراء الفلوس وكلما حققنا شيئا .. تبين لنا أن المشوار مازال طويلا .. لقد صارحته برأيى وقلت له أننا سعداء بما حققنا وأن عليه أن يختار بين أن يحيا بين أولاده ومع زوجته التى اختارته من الدنيا كلها وبين أحلام الثراء هذه .. فوعدنى بالتفكير .. وعدت لمصر حزينة مثقلة بالهموم لقد لاحظت هذا التغيير منذ فترة لكن حبى له أخفى عنى الإحساس بحقيقته .. لقد فقد زوجى شيئا جوهريا فهو دائما يفكر فى المستقبل باستمرار ويجرى حسابات لكل شيء ويترجم كل شيء إلى أرقام ومبالغ.. ويسألنى أحيانا ما جدوى الحياة بلا مال .. بل ماجدوى الحب إن لم نوفر له الظروف المادية التى تحفظ له «كرامته» !

وكنت أقول له أنى أبيع كل ما نملك بيوم واحد من

أيام حبنا وأنا بعفرية الشغل وهو بالبنطلون الجينز المقطوع وكل منا فوق سلم فى الشقة الخالية يدهن جدرانها ونحن نتبادل القفشات والابتسامات ثم ننزل وسط التراب وكل منا يحتضن الآخر فى عينيه لنأكل بشهية غداء من الجبن والخيار والطعمية ونشرب الشاى من «الترموس» .. فيهز رأسه صامتا ثم لا يتكلم!

وأخيرا وبعد مراسلات واستعطافات وبكاء فى التليفون ورجاء من أبنائه أن يأتى ولو للزيارة .. جاء ، مرغما ، لأنه فقد وظيفته فى موجة الاستغناءات التى شهدتها الدول البترولية مؤخراً ، جاء .. ولم يجىء فى نفس الوقت .. جاء بجسمه ورسمه وصوته .. لكن أين حبيبى القديم ؟ لقد انشغل خلال الشهور الأولى من عودته بالجرى وراء تسلم الشقة التمليك التى دفع ثمنها وهو فى الخارج وتسلمها وأصر على الانتقال إليها رغم حزنى على شقتى القديمة .. وانتقلنا إليها .. صحيح أننا انتقلنا إلى شقة أكبر فيها جهاز تكييف وتليفون بغير سلك وموكيت .. لكن لا دفء فيها ولا حنان.. فزوجى يمضى الليل ساهرا شاردا مبتعدا .. وينام معظم النهار ثم يخرج ليركب السيارة الكبيرة التى عاد بها ويعود قرب الفجر .. ولا هم له إلا الحديث عن الملابس الفاخرة بيير كاردان والولاعة الكارتيه وزجاجة الكولونيا التى ثمنها ٢٠٠دولار والأصدقاء من كبار الماليين الذين يأتون لزيارة مصر .. فيسرع لملاقاتهم فى الفنادق الكبرى التى يقيمون فيها .. ويتحدث معهم عن المشروعات التى ينوى مشاركتهم فيها إلى آخر هذا

الحديث وقد تباعد تماما عن أهله وأشقائه وشقيقاته فلم يعد يزورهم أو يلقاهم .. ولم يعودوا يزوروننا بعد أن ترسخ لديهم الانطباع بأن زوجى قد تكبر عليهم لكنى أحرص على مجاملتهم وزيارتهم مع أولادى فى المناسبات لأن الدنيا بلا أهل قاسية ولأنى أريد أن يكون لأبنائى أولاد عم وأولاد عمة يحبونهم .. فيلفوننى بترحيب من القلب واحترام شديد ويقولون لى أننى أصيلة ولم أتغير مثل زوجى .. !

المهم يا سيدى أن المشكلة الآن هى أن زوجى قد أصبح شخصية بغيضة بالنسبة لكل من كانوا يعرفوننا من قبل .. وبالنسبة أيضا لسكان العمارة التى نعيش فيها .. فهو يسير شامخا بأنفه لا يحيى أحدا ولا يرد تحية أحد ويعلو صوته على كل من يتعامل معه من البواب إلى المكوجى إلى بائع الجرائد إلى سايس الجراج، وكثير التردد على قسم الشرطة لشكوى فلان أو علان لأنه رد عليه الإهانة .. أو سبه .. وهو فوق كل ذلك بلا عمل لأنه يريد عملا فى «مستواه» .. ويفكر فى مشروعات بمئات الألوف ويرفض البحث عن عمل مناسب أو يبحث ويتقدم لوظيفة أعلن عنها .. فيدخل على صاحب العمل شامخا بأنفه وببدلته الثمينة وخاتمه الماسى الكبير وساعته التى يستعرضها أمامه ويحرص على أن يتحدث عنها وعن خاتمه وولاعته .. فينهى صاحب العمل المقابلة بجفاء .. إن لم يطرده ! وقد طرد فعلا من مكانين ولم أعرف بذلك سوى من زملائى فى العمل الذين يتعجبون من حاله .

ثم جاءت الكارثة يا سيدى حين بدأت أشم رائحة غريبة تنبعث منه وعرفت أنه يشرب خارج البيت .. فكدت أصعق خوفا من أن يعرف أبنائى عن أبيهم ذلك فتهتز صورة المثل الأعلى أمامهم .. وأنا التى تحرص على نشأتهم نشأة دينية ونؤدى معا الفروض جميعها إلى أن فاجأنى زميل قديم لى فى العمل بخبر نزل علىّ كالصاعقة هو أن زوجى الحبيب وشريك كفاحى يسعى عن طريق زياراته «لأصدقائه» الجدد ومجاملاته لهم للعودة مرة أخرى للعمل فى نفس البلدة التى كان فيها.. وأنه قد تقدم لخطبة إبنة رجل أعمال غير مصرى شبه مقيم فى مصر وله أعمال فى هذه البلدة .. عمرها ١٧ سنة وتدرس بالثانوية العامة ويتقرب إليها بإعطائها دروسا فى الرياضيات لمساعدتها فى النجاح .. وأن الأب لم يرفض ولم يقبل مؤجلا البت فى الأمر إلى ما بعد نجاح ابنته فى الثانوية العامة والتحاقها بالجامعة .. تاركا القرار لها رغم معرفته بأنه زوج وأب !

دارت الدنيا بى عند سماعى هذا الخبر .. وعدت إلى البيت محطمة خائرة القوى فرقدت على السرير بلا حراك إلى أن جاء ، وواجهته فأنكر .. وقال لى أنه فعلا يعطيها دروسا فى الرياضيات لا ليتزوجها .. وإنما لكى يحفظ له أبوها الجميل .. ويوظفه فى شركته بالدولة العربية .. أو يشاركه فى مشروع هنا فى مصر .. واحترت معه .. هل أصدقه وأسد باب العذاب والمعاناة.. أم أكذبه وأفتح أمامى أبواب جحيم الشك .. وتزداد معاناتى مع ما أعانيه من قبل من تغير شخصية زوجى

ونفور الناس منه .. وافتقادى لأيام السعادة القديمة معه. إننى أسألك ماذا أفعل ؟ وأسألك هل كل من اغتنوا بعد فقر تغيروا كما تغير زوجى - أو فعلوا كما يفعل الآن ، هل المال شر .. أم خير ؟ لقد كنا سعداء حين كنت أفصل له قمصانا على ماكينة الخياطة .. وأنا الآن أفتقد السعادة معه وهو يرتدى قمصان البيير كاردان والملابس الفاخرة . وكنت سعيدة وهو يملأ حياتى رغم غيابه بالخارج .. وأنا الآن تعيسة وهو بجانبى بجسمه.. وغائب عنى بروحه القديمة الجميلة التى أحببتها .. ولا أعرف لماذا يعتقد فى نفسه أنه كائن عظيم لمجرد أنه جمع بعض المال .. ودائما يرغب فى أن يحقق أشياء وأشياء .. ونحن فى الحقيقة ناس بسطاء وحياتنا بسيطة ولا أرغب إلا فى الستر .. إننى حائرة فأخرجنى من حيرتى !

□ **ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن رسالتك هذه يا سيدتى هى واحدة من عشرات الرسائل التى تلقيتها وتناقش ما أسميه بمشاكل «مابعد العودة».. أى مشاكل التغيرات الاجتماعية التى ترتبت على تغير الأوضاع المادية لبعض الأشخاص بعد انتهاء تجربة العمل فى الخارج وعودتهم إلى بلادهم ومجتمعهم بمدخراتهم، وما تحكين عنه هو إحدى صور المشكلة حين يصبح المال شرا يغير النفوس ويدمر الأحلام الجميلة .. لكنها ليست القاعدة يا سيدتى وإنما الاستثناء فيما أظن .. فالثراء الجديد هو أحد الاختبارات الهامة لحقيقة شخصية الانسان التى قد**

تختفي بعض جوانبها تحت تأثير الظروف المحيطة .
فهناك أشخاص يُظهر المال الجوانب الخيرة الأصيلة في شخصياتهم .. فيزدادون رضا بما حققوا وحبا وعطاء للبشر واقترابا منهم ومقدرة على اجتذاب القلوب إليهم ... وهناك أشخاص يُظهر الثراء الجديد أسوأ ما فيهم ويطلق الوحوش الكاسرة الكامنة داخلهم ، ومركبات النقص المتفاعلة فيهم فيتحولون إلى شخصيات عدوانية شرسة مشوهة تتصور لفرط بلاهتها أنها شخصيات «عظيمة» لمجرد امتلاكها لبضع عشرات أو مئات الألوف أو الملايين، إن العظمة يا سيدتي شيء آخر يرتبط بالشخصية نفسها ولا علاقة لها بحسابات البنوك والسيارات الكبيرة والخواتم الماسية ولقد سقط زوجك بكل أسف في هذه المصيدة الخادعة لضعف في نفسه وشخصيته وظروف نشأته في أسرة مفككة أفسدت عليه حياته ودمرت شخصيته.. لهذا فهو مكتئب رغم أمواله وخاتمه الماسي وتعيس رغم كل شيء، ويتصور أنه لم يحقق بعد كل رغباته وكل ما يريده لنفسه .. لهذا فهو «راغب» أبدا .. و«لاهث» أبدا وراء شيء لن يصل إليه أبدا .. كما لا يصل الضال في الصحراء إلى نبع السراب الذي يتحرك من مكان إلى مكان كلما اقترب منه .

لقد سئل حكيم يوما : ماذا ترغب ؟ فقال أرغب في ألا أرغب ! ولا غرابة في ذلك لأن معظم تعاسة البشر تنشأ من عدم تناسب رغباتهم مع قدراتهم على

تحقيقها، وإذا كان من المستحيل أن يتوقف الإنسان عن الرغبة إلا إذا توقفت الحياة نفسها فإنه من الحكمة إذن أن يكون قادرا على التحكم في رغباته وميالا إلى البساطة والرضا بما حققه وقادراً على الاستمتاع به لكي لا يفسد على نفسه أيامه بالتطلع دائما إلى المستحيل .

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن الأمل في إنقاذ زوجك من نفسه وتكبره على العمل العادي والحياة مازال ممكنا بشرط واحد هو أن تتحملي مسئوليتك في هذه «المعركة».. فأنت يا سيدتي فيما أعتقد كنت سلبية معه بأكثر مما ينبغي فقد كنت ترثين لحاله لكنك لاتفعلين شيئا إيجابيا لتغييره.. وتتألمين له لكنك تكتفين بالألم واجترار ذكريات الأيام البعيدة وهذا وحده لا يكفي. إن الحذر من الشر هو نصف المعركة ضده. وأنت في معركة ضد الشر لإنقاذ شخصية زوجك من سلبياتها .. وإنقاذ سعادتك وأسرتك من الخطر الذي قد تجره عليها مجاملاته لهذه الأسرة غير المصرية ورغبته في العمل مع ربها .. فاحملي سلاحك يا سيدتي للدفاع عن حبك وزوجك وأبنائك.. واقنعيه بضرورة قبول أي عمل مهما كان شأنه هنا والتخلي عن فكرة العودة إلى عمله السابق عن هذا الطريق الانتهازي ، فالفراغ مع «أحلام العظمة» التي تراوده شيء بالغ الخطر على شخصية إنسان كزوجك.. وطالبيه بضرورة التوقف عن إعطاء هذه الدروس لابنة السابعة عشرة فهو ليس مدرسا ..

واستمراره فى هذه المحاولة الانتهازية قد يؤدى فعلا إلى تطور الأمر تطورا خطيرا يهدد عشك الصغير بالدمار.. ولابد أن تبذلى كل جهدك لإعادته إلى أرضه التى نبت منها تقربى بينه وبين أهله. وأنصحك بأن تصطحبيه ولو عنوة لزيارة أشقائه وأصدقائه وزملاء العمل القدامى.. عسى أن يكتشف أن قيمة الإنسان الحقيقية هى فى حب الآخرين له وفى قدرته على التواصل معهم وليس فى الخاتم الماسى والولاعة الثمينة.. لأننا لا نتعامل مع ملابس البشر ولا سياراتهم وإنما مع روحهم وشخصياتهم ولعله يكون مفيدا أيضا أن تصطحبيه مع أبنائك لزيارة هذه الأسرة غير المصرية مرة واحدة ينقطع بعدها عن زيارتها لكى يرى عائلها السفيه «أسرة» هذا الصديق الذى «لم يرفض» و«لم يقبل» خطبته لابنته بنت السابعة عشرة تاركا الأمر لها! فلعلهم يخجلون من أنفسهم .. ولعلهم يرتدعون .. والله معك.

الشبح القديم ..!

أكتب إليك يا سيدى وأنا فى حيرة من أمرى .. وأرجو أن تشير على بما تراه الحق والعدل والصواب.. فأنا شاب فى الرابعة والعشرين واجهت الحياة منذ طفولتى إذا صح أن أقول أنه كانت لى طفولة .. فلقد تنبه وعيى وأنا طفل صغير على المشاجرات الدائمة بين أبى وأمى بسبب ترك أبى للعمل كل فترة وعدم الإنفاق علينا ، وذات مرة امتنع عن دفع إيجار الشقة التى كنا نقيم فيها لأكثر من ستة شهور فاقترضت أمى قيمة الإيجار المتأخر من أخوتها وذهبت لتدفعه لصاحب البيت، لكنه سامحه الله كان يدبر لطردنا من المسكن فحصل على حكم من المحكمة بطردنا ، ووجدنا أنفسنا ذات صباح ونحن ٦ من الأطفال نقف فى الشارع مع أثاثنا ونحن نبكى وأمى تتركنا بجوار العفش لتبحث عن غرفة نقيم فيها.. وبمعجزة من السماء عثرت أمى فى نفس اليوم على غرفة خالية نقلنا إليها العفش وتكدسنا داخلها.. وبدأنا نواجه الحياة وحدنا بعد أن تركنا أبى وابتعد ... كنت فى ذلك الحين تلميذا فى الصف الثالث الابتدائى .. وكانت أختى فى الرابعة عشرة فعملت بالخياطة لقاء عدة قروش كل يوم فى مشغل قريب ، أما أنا فلقد عملت فى جراج للسيارات أذهب إليه فى

السادسة صباحا وأعمل فيه حتى الثامنة مساء، وفى نهاية اليوم يعطينى صاحب الجراج سبعين قرشا آخذها شاكرا لأعطيها لأمى لتساهم مع أجر أختى فى تدبير حياتنا ، وأرادت أمى أن تعمل فمنعناها لأنها مريضة وتذهب للمستشفى كل يومين وصبرنا على حياتنا الجافة التى لا أستطيع أن أصف مدى جفافها لكن يكفى أن أقول لك أننا كنا نعيش خلالها على الخبز «الرجوع» والملح فقط لا غير، فى الصباح وفى الظهر وفى المساء، وأن أياما طويلة كانت تمر لا يدخل جوفنا سوى العيش «الرجوع» والملح والماء .. والحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه .. فهل تعرف ما هو الخبز «الرجوع» ؟ .. إنه يا سيدى الخبز البائت الذى يجف ويتكرمش فتعيده محلات البقالة إلى المخبز لعدم بيعه ، فيقوم المخبز ببيعه بربع الثمن لربات البيوت الفقيرات فيستخدمنه كطعام للطيور أو لمحلات الطعمية التى تفرمه على عجينة الطعمية ، وكانت أمى تواظب على شرائه من المخبز بحجة إطعام الطيور خجلا من صاحب المخبز وعماله ولم يكن لدينا طيور ولا نسور .. إنما كان لدينا الستر والصبر على ظروف الحياة .. لكن رائحة الفقر نفاذة ياسيدى ولايمكن إخفاؤها طويلا لهذا شك صاحب المخبز بعد شهرين أو ثلاثة فى حكاية الطيور هذه لأن ربات البيوت لا يشترين هذا الخبز بانتظام ٣٠ رغيفا كل يوم .. وإنما يشترينه مرة كل أسبوع أو كل عدة أيام لهذا ناداها حين جاءت لتشترى هذا الخبز ذات صباح وسألها عن قصتها .. وألح عليها لتتكلم فروت له القصة

كلها .. فاستعاذ الرجل بالله من الشيطان وسب ولعن .. وصب جام غضبه على أبى الذى تركنا لهذا العذاب ثم أمر عماله بأن يعطوا أمى ثلاثين رغيفا طازجا كل صباح بغير مطالبتها بثمنها .. لأن الحساب معه!! وهكذا حفظ لها كرامتها أمام عماله .. وواظب على ذلك عدة سنوات بل كان يرسل هذه المقطوعية مع أحد صبيانه إلى البيت إذا لم يذهب أحد لتسلمها .. ولم يقبل ثمنا لهذا الخبز إلا بعد أن تخرجت أختى الكبرى من المدرسة التجارية بعد ذلك بسنوات وعملت بإحدى الشركات الحكومية وقبضت أول مرتب لها .. وذهبت إليه أمى لتشكره ومعها المصحف لتقسم عليه أمامه أنها تستطيع الآن أن تدفع ثمن ما تشتريه .

وكنت أنا فى ذلك الحين قد عملت فى محل تجارى ببضعة قروش كل يوم .. كنت أخرج من المدرسة فأذهب إليه حتى التاسعة مساء ثم أعود إلى مسكنى فأجد إخوتى الصغار يذاكرون أو يسمرون مع أمى لأن أمى رغم قسوة حياتنا أصرت على تعليمنا .. ولم يكن ذلك طموحا ولا ترفا ، وإنما فقط وسيلة للنجاة من ظروفنا .. فقد كانت تقول لنا أنه لا أب لكم .. ولا مال .. فليس أمامكم سوى التعليم لتجدوا لقمة عيشكم ، وكان ذلك أكبر حافز لنا على النجاح والتقدم ، فلم يرسب أحد منا جميعا سنة واحدة .. ولم نعرف بالطبع الدروس الخصوصية ولا حتى مجموعات التقوية بالمدارس .. بل كان إخوتى الصغار يعملون فى الصيف ويدخرون ما يكسبون لإنفاقه خلال السنة الدراسية.. أما أنا فكنت

أعمل صيفا وشتاء ، وهكذا مضت بنا الحياة فتزوجت أختى الكبرى وجهزت نفسها بنفسها من مرتبها وتخرجت أختى التى تليها من المدرسة التجارية وتزوجت وعملت وجهزت نفسها بنفسها .. واخترت أنا التعليم المتوسط لأختصر المشوار ولأتيح لشقيقى الذى يلينى دخول الجامعة لأنه كان متفوقا باستمرار فى دراسته وحصلت على شهادتى .. وجاء دورى للتجنيد وحاولت قدر الإمكان تأجيله بسبب ظروفى فلم أنجح .. فاستسلمت للمصير والتحقت بالخدمة فتوقف دخلى من عملى ، وأصبحت أعمل لمدة ٤ أيام كل أربعين يوما فلا يكفى أجرى خلالها لمتطلباتنا وطوال هذه السنوات الطويلة لم أفكر فى اللجوء إلى أهل أبى أو طلب مساعدة من عمى لكنى ضعفت ذات يوم حين جاء موعد ذهابى للوحدة ولم يكن فى جيبى قرش واحد .. ولم يكن مع أمى مليم .. وخجلت أن أقترض من شقيقتى المتزوجتين لكيلا يطلع زوجاهما وهما «غريبان» على أحوالنا.. ففكرت لأول مرة فى الذهاب إلى عمى لأقترض منه جنيها أو جنيهين وذهبت مشيا على الأقدام إلى بيته ووصلت مجهدا إلى مسكنه وطرقت الباب ففتحته لى زوجته .. وقبل أن أتكلم قطبت فى وجهى وقالت لى : ماذا تريد .. إننا لا نعرف شيئا عن أبيك .. ! فجمد لسانى .. ولم أتكلم ووجدت نفسى أستدير وأنزل السلم وأنا أكاد أتعثر فيه .. ونويت أن أسير المسافة على قدمى إلي الكيلو ٢٢ فى طريق السويس .. أو أتنطط بين الأتوبيسات كلما وجدت فرصة .. ومشيت على قدمى

حزينا .. مطأطأ الرأس، فرأيت بطاقة شخصية فى غلافها البلاستيك ملقاة على الأرض فالتقطتها.. وقدرت أنها فقدت من صاحبها .. وأنه لابد مهموم بالبحث عنها فأمسكتها فى يدى وانتويت حين أصل إلى الوحدة أن أقترض من زملائى بضعة قروش لأضعها فى خطاب وأرسلها إلى صاحبها .. وقلبت البطاقة بين يدى فإذا بى أجد داخلها أربعين قرشا !!

فأسرعت أركب الأتوبيس إلى وحدتى .. وأروى لزملائى ماحدث .. وأقترض منهم ما أنفقته فى الوصول للوحدة ثم وضعت البطاقة والمبلغ فى ظرف وأسقطته فى صندوق البريد .. وأنا أحمد الله وأتعجب من حكمته.

وانتهت فترة الخدمة العسكرية بخيرهما وشرهما وخرجت وقد آليت على نفسى أن أكرس جهدى لإسعاد إخوتى الصغار الذين يدرسون فى الجامعة وفى المدرسة .. ولإسعاد أمى المكافحة الصابرة ولعلاجها أيضا من أمراضها .. وتسلمت عملى الحكومى وبدأت حياتنا تعرف لأول مرة نسيم الراحة ..

فرغم ضآلة مرتبى فهو يكفى بالكاد لمتطلبات حياتنا.. وقد مضت سنواتنا الصعبة .. وتحملناها .. ولن يكون المستقبل مهما حدث أشد قسوة من الماضى .. ونحن رغم بساطتنا والحمد لله أغنياء بأشياء كثيرة .. فنحن من أسرة متحابة متعاونة ، نساعد بعضنا بعضا ويقدر كل فرد منا للآخر صلابته وكفاحه .. وشقيقتاى موفقتان والحمد لله فى حياتهما مع زوجين على خلق كريم وهما يزوراننا يوم الجمعة فيتحول مسكننا إلى

واحة من الحب والسعادة ، ولا ينقطعان عن زيارة أمي وإخوتي في كل فرصة ونحن نزورهما في المناسبات ونؤدي الواجب معهما حسب قدرتنا .

وبدا لنا أن الحياة قد بدأت ترضى عنا أخيرا .. وفي هذه الظروف فوجئت بعمي الذي طردنا سامحه الله ونحن أطفال صغار ذات يوم حين لجأنا إليه ، يأتي إلى مسكننا ويطلب محادثتي ، فخرجت معه وجلسنا في المقهى فإذا به يطلب مني أن يعود أبي ليعيش معنا بعد أن أصبح شيخا عجوزا لا حول له ولا قوة، لأنه ـ كما قال ـ أبي ومن حقه أن يطلب مني نفقة له .. لأنه أصبح غير قادر على العمل وتوقف عن العمل منذ فترة طويلة ، فعقدت الدهشة لساني وكدت أسأله .. وأين كان أبي وهو يكسب الكثير وينفق الكثير بعيدا عنا .. وأين كان ونحن أطفال صغار نأكل خبز الرجوع .. ونبتلعه بالملح وأين .. وأين .. لكني استحييت أن أسيء إليه بكلمة وهو أبي ووعدته بالتفكير والرد عليه وتركته وقد تجددت همومي وهاجت أحزاني .. صحيح هو أبي رغم كل ما فعل بنا.. وسوف «يتكلم» الناس عنا لو لم نقبله .. لكن كيف أنسى ما فعله هو وأهله معنا .. وأين لي أن أنفق عليه ومرتبي يكفي مطالبنا بالكاد .. وأنا لا أفكر في زواج ولا في مستقبل ولا أفكر سوى في أن ينهي إخوتي تعليمهم وأن يجد كل واحد منهم طريقه في الحياة .. وحين يحدث ذلك قد أفكر ذات يوم في نفسي وفي مستقبلي ..

إنني في حيرة من أمري وأسألك ماذا أفعل بغير أن

أغضب ربي الذي سيحاسبني عن أبي إن لم أحمه وآوه من برد الشتاء وحر الصيف وسأفعل ما تشير علي به وسأرضى بحكمك لكني فقط سأطالبك بأن توجه كلمة للآباء تحثهم فيها على أن يرحموا أبناءهم.. وأن يتحملوا مسئولياتهم عنهم .. وألا يتركوهم للحياة تصارعهم كما صارعتنا ..

□ ولكاتب هذه الرسالة المريرة أقول : إنني لو تركت نفسي لانفعالها برسالتك لطالبتك بأن توصد بابك في وجه هذا الأب الظالم وأن تقبض يدك عنه وأنت غير ملوم .. لكننا لا نستطيع يا صديقي أن نتبع أهواءنا وننقاد لانفعالاتنا ، لأننا مطالبون بأن نستجيب لما تمليه علينا قيمنا الدينية والخلقية والإنسانية .. حتى مع من ظلمونا وتخلوا عن واجبهم تجاهنا ..

وفي ضوء هذه المعايير أقول لك أنك لا تستطيع أن تتنصل من بنوتك لمن تنصل من أبوته لك .. وما أخالك ستفعل ذلك وأنت الشاب المكافح الأمين الذي يظلل الحب الأسري حياتك رغم قسوتها .. وإنما أنت فقط تتأمل مفارقات الحياة وتتعجب ممن ترككم في اليم غرقى .. فلما لاطمتم الأمواج ولاطمتكم وسبحتم إلى الشاطيء بعد كفاح مجيد .. جاء إليكم يطالبكم بنصيبه من صيد الرحلة الشاقة .. وهو صيد زهيد شحيح لا يكاد يقيم أودكم .. أنت تتأمل يا صديقي وتعجب ومن حقك أن تفعل وأنا أعجب معك من أبيك ومن أمثاله من الآباء والأمهات الذين يتصورون أن

الله يحاسب الأبناء وحدهم عن عقوقهم .. ولايعرفون أن حسابه أشد وأقسى لمن استودعهم الله ودائعه فتخلوا عنها أو أساءوا لها .. ولم يؤدوا حقوقها إليها.. وودائع السماء هذه هي الأبناء الذين يسأل المرء عما فعل بهم وعما قدم لهم.. وعنهم قال الرسول الكريم «رحم الله إمرأ أعان ابنه على بره» أى رحم الله من أعان ابنه بعدله معه ورحمته وأدائه لواجبه له على أن يكون نعم الابن البار به في ضعفه وشيخوخته ، لأن الأبوة ليست مجرد علاقة عضوية .. ولأن الأب الغائب بالضرورة عن أبنائه ولا يرعاهم ولا يكفلهم ولا يحميهم من أعاصير الحياة ليس أبا بالمعنى الإنساني الصحيح ، وأى إنسان يؤدى هذه الواجبات تجاه الأبناء الصغار قد يكون أحق بصفة الأبوة منه .. لذلك فقد أعجبت كثيرا بشهامة صاحب المخبز الذى لم ينجبكم ولكنه استشعر بحسه الإنساني الصادق مدى مأساتكم .. ولم يتردد في أن يقدم لكم ما تسمح له به قدرته من مساعدة بذوق وكياسة تستحقان الإعجاب ..

هذا هو الوجه الآخر لنموذج أبيكم الذى ترككم فى مهب الريح لايدرى عنكم شيئا كل هذه السنين ..

ومع كل ذلك فإن خلقك المستقيم لن يسمح لك بالتخلي عمن تخلى عنكم لأنه أبوك فى النهاية كما قلت أنت فى رسالتك صادقا ومعبرا عن قيمك الدينية الصحيحة .. لكنك لا تملك هذا القرار وحدك يا صديقي وإنما تملكه قبلك هذه الأم الصابرة المكافحة،

وعودته إلى حياتكم يجب أن تلقى قبولها أولا وقبل كل شيء.. فإذا كانت على استعداد لأن تصفح عنه وأن تجمع معه شمل الأسرة الذى انفرط منذ سنين .. كان خيرا وأتقى . أما إذا كان العكس فلا أحد يستطيع أن يرغمها على معاشرة مثل هذا الزوج بعد كل ما عانت في حياتها من آلام .. وفى هذه الحالة لا تملك أنت إلا أن تؤدى واجبك الإنساني معه بأن تبره بقطرة من مائك الشحيح وبأن تصله أنت وإخوتك كل حين .. وليغفر الله له ولأمثاله .. ولتعوضكم الحياة عما لقيتم فيها من عناء ومعاناة .. خيرا عميما ..

الفهـرس

صفحة